



ملكوت الواقع

ممهدات وحوافز قبل الانطلاق

د.أحمد خيري العمري

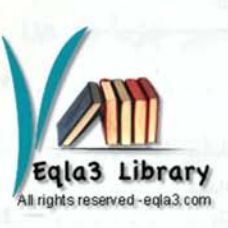


الدكتور
أحمد خيري العمري

(٢)

ملكوت الواقع

ممهدات وحوافز قبل الانطلاق





بسم الله الرحمن الرحيم

سلسلة كيمياء الصلاة

(٢)

ملكوت الواقع

ممهدات وحوافز قبل الانطلاق

ملكوت الواقع: ممهدات وحوافز قبل الانطلاق / أحمد خيري العمري .- دمشـــق: دار الفكر، ٢٠٠٨ .- ١٣٢ ص ٢٠×٢٠ سم.- (سلسلة كيمياء الصلاة؛ ٢)

١- ٢١٦,٢١ ع م ر م ٢- العنوان ٣- العمري



2011=1432

دار الفكر - دمشق – برامكة

١ ٣٠٠١ ٩٧ ٩٤٧ ٠٠٩٦٣

٣٠٠١ ١١ ٠٠٩٦٣

http://www.fikr.com/

e-mail:fikr@fikr.net

كيمياء الصلاة

٢

ملكوت الواقع

ممهدات وحوافز قبل الانطلاق

د. أحمد خيري العمري

الرقم الاصطلاحي: ٢١١٥,٠٣٦

الرقم الدولي: ISBN:978-9953-511-67-2

التصنيف الموضوعي: ٢١٨ (الموضوعات الإسلامية المتنوعة)

١٣٢ ص، ١٢ × ٢٠ سم

الطبعة الرابعة: ١٤٣٢هـ = ٢٠١١م

ط١ / ٢٠٠٨م

المحتوى

قوة الكلمات

في عالم لم يعد يؤمن بشيء، لا أزال أؤمن بقوة الكلمات...

في عالم لم يعد يؤمن إلا بقوة المادة، لا أزال أؤمن بقوة الكلمات، بقدرتها، بامتلاكها شفرة تفتح مغارات وعوالم..

في عالم فقد رشده منذ زمن طويل، لا أزال أؤمن برشد الكلمات..

أحياناً بمنتهى الشغف، وأحياناً أخرى بمنتهى البؤس، لكني لا أزال أؤمن بالكلمات..

* * *

وفي عالم رفع راية الاستسلام منذ زمن بعيد، لا أزال أؤمن أنا بالتغيير..

في عالم فقد الأمل في أن بالإمكان شيئاً ما، لا أزال أؤمن أنا بالإمكان..

في عالم صار يؤمن بالعبث..لا أزال أتمسك أنا بالهدف..

في عالم لم يعد يؤمن إلا بالمصادفة، لا أزال أؤمن

بأننا خلقنا من أجل هدف.. وأن الهدف هو أن نغير هذا العالم.. أن نعيد بناءه على أسس أكثر عدالة وتوازناً..

* * *

في عالم لم يعد يؤمن إلا بصورة مبهرجة ثلاثية الأبعاد (حتى لو كانت مزيفة ومعدلة بالحاسوب) أؤمن بالبعد الرابع، بالكلمات تنقلنا إليه.. وتنقلنا عبره لتحدث شرخاً في جدار الواقع.. في ذلك البرزخ بين الواقع كما هو، وبين الواقع كما يجب أن يكون..

أحياناً يبدأ الشرخ مجرد ثقب صغير، لكن كلمات أخرى - و لو بعد عقود - أو ظروف ما، تفاعل ما، يمكن أن توسعه بالتدريج، لتهدم ذلك السور العظيم الذي يفصلنا عما يجب أن نكون..

* * *

في عالم لم يعد يؤمن إلا بالأمر الواقع، لا أزال أؤمن بالحقيقة وأؤمن أيضاً أن الحقيقة ليست بالضرورة هي الأمر الواقع.. وأؤمن أيضاً أن الأمر الواقع يمكن أن يتشكل كما تريد الحقيقة..

في عالم صار يتشدق أن التغير هو الثابت الوحيد، لا أزال أؤمن أن الحق ثابت، وأن الحقيقة - لأنها بنت الحق - ثابتة..

* * *

في عالم ترك الحقيقة وسكن الأمر الواقع، لا أزال

أؤمن أن الجمع بين الاثنين ليس مستحيلاً.. وأنه ليس خيالاً أدبياً ولا حروباً وهمية لطواحين هواء لا وجود لها.. وإن بدا كذلك للبعض..

وفي عالم يبدو جائماً كالكابوس، أؤمن أن محاولة التغيير، مهما بدت صعبة، فإنها تستحق المحاولة..

* * *

في عالم لم يعد يؤمن بالمعجزات، لا أزال اؤمن بقدرة الكلمة على صنع المعجزات.. بل إني أؤمن أن اختياره - عز وجل - للكلمة لتكون وعاء المعجزة الأخيرة للرسالة الخاتمة، يحوي دلالة عميقة على ما أؤمن به من قوة الكلمات..

* * *

تمتلك الكلمات تلك القدرة على التقاط المعاني واقتناصها داخل مركبة الأبجدية وأصواتها، ومن ثم تملك تلك القدرة على ضخ هذه المعاني داخل الرؤوس..

لن أدعي أبداً أن ذلك وحده كفيل بإحداث التغيير.. لكني أزعم أن الكلمات تقدح شرارة ما.. وأن هذه الشرارة يمكن لها أن تخمد.. ويمكن لها أن تصير ناراً تحرق ما يجب أن يحرق من عالم قديم متداع "يسمونه أحياناً عالم الأمر الواقع".. أو تصير الشرارة نوراً يضيء الدرب إلى عالم تتواءم فيه الحقيقة مع الواقع.. ليس بالكلمات وحدها بالتأكيد.. لكن الكلمات هي عنصر أكيد من معادلة معجزة هي معادلة التغيير..

أؤمن أيضاً أن كل كلمة من كلمات الصلاة، في أركانها وهيئاتها، تحوي من المعاني أكثر مما نظن.. بل إنها يمكن أن تحدث ذلك الشرخ في البرزخ.. نحو ملكوت الحقيقة.. ملكوت الواقع...

كل كلمة.. كل حرف.. أقصد ذلك حرفياً.. من الأذان إلى التسليم..

* * *

بسبب كل ذلك، فإني أؤمن بقوة الكلمات..

أحياناً بمنتهى الشغف.. أحياناً بمنتهى البؤس .. لكني، أؤمن بالكلمات...



الفصل الأول

الأذان: صوت صارخ في البرية...

"الله أكبر"..

يصرخ الصوت منذ قرون، منادياً للصلاة عبر القارات.. تارة حنون وقوي، وتارة جميل ومؤثر. تارة يأتي من حنجرةٍ كأنها قلب خاشع، وتارة من أوتار اهترأت ولم يجددها الإيمان..

"الله أكبر".. يصرخ الصوت منذ قرون.. أحياناً تدخل الكلمة إلى القلوب، وأحياناً إلى العقول. أحياناً تدخل من أذن لتخرج من الأخرى فوراً ودون تأخير. أحياناً تخرج بعد تأخير، وأحياناً تستقر في القلب..

أحياناً تنزلق على الرؤوس دون أن تترك أثراً، كما تسقط قطرة مطر على صخرة ملساء، وأحياناً "تعلق" بشيء ما، تتفاعل، ينتج التفاعل ثمرة ما..

أحياناً بمعنى، وأحياناً تقال بلا أي معنى مقصود في رأس من قالها.. فقط حنجرته هي التي "حكت" و حبالها هي التي تحركت..

"الله أكبر"..

منذ قرون، عبر القارات، وعلى الأكثر لقرون قادمة، عبر القارات أيضاً..

ولأن "الله أكبر"؛ فإنها جملة ستكون صحيحة في كل سياق محتمل، لا يوجد سياق للحديث، أو للتعليق على حديث، أو على حدث، دون أن تكون هذه الجملة مناسبة له..

إذا كان الحديث عظيماً في إيجابيته، فالله أكبر.. وإن كان هناك ثمة شيء مفزع في سلبيته، فالله أكبر..

دخلت الجملة، في مفرداتنا اليومية، صرنا نقولها، أحياناً بلا هدف، فقط للتعبير عن الإثارة أو الإعجاب، أو الحزن..

جردها استعمالنا من أعمق أبعادها.. كأنما الأحرف لا تعبر إلا عن أصوات، كأنها غير مرتبطة بذلك الضوء القادم من بعيد..

من بعيد جداً.. منذ قرون..

* * *

رغم أنها تستخدم في مواضع عديدة وغير مترابطة إلا أن استخدامها الأساسي، وربما للمرّة الأولى، كان من أجل الأذان..

النداء إلى الصلاة..

* * *

الله أكبر: للمرة الأولى

من أين جاءت هذه الجملة، التي تحولت لتصير شعار الأمة عبر القرون.. (وكأي شعار، أسيء استخدامه في كثير من الأحيان..)؟..

ليس في النص القرآني، مبنى هذا التركيب اللفظي، رغم وجود معناه، وبكثافة، في عموم الآيات القرآنية..

لكن اللفظة بحد ذاتها: الله أكبر.. غير موجودة في أي من الآيات الكريمة..

* * *

ليس في هذا أي إشكال، فوجود المعنى كفيل بنحت المبنى..

كما أن اللفظ، ما دام قد ورد، وثبت عنه عليه أفضل الصلاة والسلام، وثبت أنه قد استخدم للنداء من أجل الصلاة، في الحادثة المعروفة، فلا داعي هناك لافتعال المشاكل..

* * *

مع ذلك، يظل للنص القرآني سلطته على ما عداه.. وتظل له الهيمنة والأولوية.. دون أن ينقص ذلك من أهمية ما صح وتواتر عنه عليه أفضل الصلاة والسلام..

ولذلك، كنت أشعر دوماً، أن ثمة شيئاً ما، ينقص فهمنا الحرفي لهذا الأمر.. لا مشكلة في النص، المشكلة

دوماً في الأفهام البشرية العابرة.. التي لا تحاول أن تسبر الأغوار، أن تحفر في النص.. بحثاً عن أفق جديد..

شعار مثل هذا، اختير ليكون أول كلمة تنطق في النداء إلى أهم ركن من أركان الشعائر، لا يمكن أن يكون غير موصول بنص قرآني محدد.. نص قرآني بعينه..

الانطلاق من هذه الحتمية، يوصل طبعاً إلى نتيجة..

عندما أعلن "الإنسان" أن الله أكبر..

﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾﴾

[الأنعام: ٦/٧٦-٧٨]..

إنها تلك الليلة مجدداً.. ليلة التساؤلات، وليلة الأجوبة، ليلة البحث عن اليقين، ليلة انهيار المكرسات، بالضبط: ليلة تحطيم المكرسات عبر الأسئلة: تعريتها عبر تلك التساؤلات، وضعها على المحك.. ونسفها.. بل كشف أنها غير موجودة أصلاً..

إنها تلك الليلة مجدداً، يوم كان الليل يغطي وجه الكرة الأرضية كلها، يوم كان الليل مخيماً على العقول.. يوم لم يكن هناك عقول، حيث كان الليل..

تلك الليلة، يوم وقف "إبراهيم" أمام معبودات قومه؛

النجم، القمر، الشمس.. وكل منها كان يمثل أكثر من مجرد معبود، كل منها يمثل ما وراءه من أنماط للعيش وعلاقات للإنتاج ومصالح اقتصادية، وطريقة في التفكير توصلت إلى عبادة هذا الشيء دون سواه، أو إضافته إلى صف المعبودات..

هل كان إبراهيم يتساءل حقاً كما يشير السياق القرآني و كما قال غير واحد من المفسرين مثل الطبري؟.. أم إنه كان يمثل ذلك التساؤل أمام قومه - كما أوّل بعض المتأخرين- ليستدرجهم إلى الحقيقة في النهاية؟..

أياً كان، لقد كان إبراهيم يمثل "النوع البشري" وهو يتساءل، كان يسأل بالنيابة عنا جميعاً بالتأكيد. وربما كان يسأل بالأصالة عن نفسه.

لكنه، على الأقل، كان يسأل بالنيابة عنا جميعاً، ليثبت لنا، أن التساؤل يمكن أن ينسف كل ما هو ركيك.. وأن الوصول إلى الجواب لابد أن يمر بالسؤال، وأن الطريق إلى اليقين لا بد أن يمر بالتساؤل.. هناك، في عمق الليل، جاء التساؤل الإبراهيمي معولاً يحطم أركان الليل..

* * *

﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُ﴾ [الأنعام: ٦/٧٨]..

لقد قال: هذا أكبر..

القمر، كان يبدو أولاً، من حيث يقف إبراهيم، أكبر من النجم، الكوكب الذي رآه إبراهيم أولاً.... ومن خلال

منظومة القيم السائدة عند قوم إبراهيم كان "الأكبر" هو بالضرورة الأقوى، وهو بالضرورة "المنتصر".. وهو بالضرورة "المهيمن"..

بعد القمر، الذي بدا أنه أكبر من النجم، جاءت الشمس.. وكانت أكبر "الجميع".. وقال عنها إبراهيم "هذا ربي هذا أكبر".. لكنها أفلت لاحقاً.. وكان أفولها إيذاناً بسقوط مفهوم "الأكبر" بالمعنى المادي المباشر..

بدا مفهوم الأكبر "هشاً" من حيث وقف إبراهيم على حافة الحقيقة.. كان الأفول هو الحقيقة الوحيدة التي قهرت كل تلك المكرسات.. كلها أفلت.. كل ما هو "كبير" فيها، جاء الأفول ليصغره.. ليجعله أصغر..

* * *

وعندما تلمس إبراهيم دربه في الظلمة، رغم الشمس التي كانت قد أشرقت، أعلن على الملأ، بالنيابة عنا، وبالأصالة عن نفسه، ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا﴾ [الأنعام: ٦/٧٩].

هناك فقط، انتهت الظلمة، وهزم الليل.. ذلك الدماغ الإنساني المبتكر والمميز عن كل أدمغة المخلوقات أنجز قفزته الهائلة، نحو الإيمان بما هو غير مرئي ولا محسوس.. الأمر الذي هو مستحيل - تقنياً - بالنسبة إلى أدمغة بقية المخلوقات..

كانت قفزة هائلة، من حافة الليل، إلى أفق النور.. ولم تكن في الفراغ..

ما سكت عنه إبراهيم

ما سكت عنه إبراهيم في تلك الليلة وقد انقضت، صرنا نردده.. صار صداه يتردد عبر القرون والقارات.. ما لم يرو على لسان إبراهيم في القرآن، صار شعاراً للحنيفية الحقة..

﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى﴾ [الأنعام: ٦/٧٧]..

وكانت الشمس أكبر..!

لكن الله هو الأكبر!، وذلك ما لم يقله إبراهيم بالحرف، لكننا نحن الموصولون بالتجربة الإبراهيمية، بوصفه المسلم الأول، نقولها ونرددها، وصارت الشعار، والنداء للصلاة..

كانت تلك هي العبارة المتضمنة "بين سطور" الآيات الكريمة.. كانت تلك هي العبارة التي علينا أن نكملها نحن، كان مبناها مفقوداً، لكنها مثل قانون رياضي، تستطيع أن تستنتجها، بل أن تنقطها بالحرف، من مقدمات المعنى والمبنى..

﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ﴾ [الأنعام: ٦/٧٨] كانت عن الشمس..

لكنه الله، الله أكبر..

خارج التصنيف

وهو أكبر بالذات لأنه خارج هذا التصنيف برمته.

خارج هذا التقييم. خارج حتى كلمة "خارج". إنه، ببساطة، غير خاضع لأي نوع من المقاييس، ولذلك بالذات هو أكبر.. لأنه يتعدى كل الموازين ولا يخضع للمقارنة مع أي شيء سواه.. سواء كان هذا الشيء معبوداً مادياً مباشراً ومجسماً، أم كان فرداً تجاوز الحدود بقوته وطغيانه.. أم كان إيديولوجية براقة، أم نمطاً للحياة، يسوق عبر وسائل الإعلام.. أم دولة عظمى تفترض أنها الرقم واحد.. وتفترض أنها ستبقى كذلك..

لكن، كما تعلمون، ما وصل إليه إبراهيم، وما قاله دون أن يقوله.. في أول نهار حقيقي عرفه البشر..

الله أكبر..

* * *

صوتٌ صارخٌ في البرية، ربما كان صوت إبراهيم، ربما كان رجع صداه، ربما كان صوتاً من أصواتنا..

صوتٌ صارخ في البرية، يؤذن لنا بالصلاة..

يقول: الله أكبر..

* * *

لن يكون ذلك مصادفةً بتاتاً..

ليس مصادفة أن تكون الكلمة الأولى، في النداء لإقامة الصلاة، مرتبطة بسيدنا إبراهيم..

أليس هو أول من أقام الصلاة؟..

أليس هو أول من استعمل لفظة إقامة الصلاة؟.. أليس

هو من أقام أول مجتمع (أقيم) على بذرة (إقامة الصلاة)؟..

﴿رَبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [إبراهيم: ١٤/٣٧]

القامة "العمرية" العملاقة

ولن يكون مصادفةً أبداً، أن يرتبط الأذان، بنصه وحرفه، مع القامة العملاقة لعمر بن الخطاب، الذي كان قد رأى في المنام ما رأى، ووافقه عليها النبي عليه الصلاة والسلام.. ليست مصادفة، ذلك أن ابن الخطاب كان قد وعى التجربة الإبراهيمية، و فهم مغزى وعمق "المقام الإبراهيمي"، وارتباطه بإقامة الصلاة.. فاقترح أن يتخذ مصلى.. ووافقه الوحي في الحادثة المعروفة..

كانت رؤيا عمر، أكبر بكثير من مجرد "منام"؛ كانت "رؤية" متكاملة، انبثقت من فهمه العميق للقرآن ولخطوطه العامة، وظهرت بين الوعي واللا وعي فيما نسميه اليوم: مناماً ..

* * *

صوت صارخ في البرية، استمعوا له، ربما يكون صوت سيدنا إبراهيم، أو صوت بلال، أو صوت عمر، أو مزيجاً مثمراً من تلك الأصوات كلها..

صوت صارخ في البرية، التفتوا إليه، من كل صوب يأتي، عبر القرون والقارات..

إنه يقول: الله أكبر..

الشهادتان: قانون الأولويات

بعد الله أكبر، تأتي الشهادتان..

الله أكبر هي المدخل لهما.. لكنها لا تختصرهما، إنها تمهد لهما فقط.. فالشهادتان غير قابلتين للاختصار، وغير خاضعتين للتجريد، إنهما محصنتان من ذلك..

"الله أكبر".. لا توضح المعنى العالي للتوحيد.. لكنها تفتح الباب له حتماً..

الله أكبر من تلك الدولة أو من ذلك الطاغوت.. الله أكبر من شهواتنا كأفراد، ومن شهوات الآخرين.. إنه أكبر من قوة الشّر.. ومن أشياء أخرى كثيرة.. لكن كونه "أكبر" - عز وجل وتعالى عن أي تشبيه ومقارنة - لا ينفي حقيقة وجود أشياء أخرى في هذا الكون، علينا أن نتعامل معها، مع وضع حقيقة أن "الله أكبر" نصب أعيننا..

* * *

هذا التعامل مع حقائق الأشياء، ينظم بقانون، هو تلك الشهادة الأولى.. شهادة أن "لا إله إلا الله".. التي هي صلب التوحيد، وصلب التجربة الإبراهيمية..

"لا إله إلا الله" كانت هناك في تلك الليلة، يوم وجه إبراهيم وجه الإنسانية للذي فطرها..

"لا إله إلا الله" كانت هناك يوم حطم الأوثان، مرة بالمعول الحقيقي، وأخرى بمعول التساؤل.. وتركها، في الحالتين جذاذاً..

لا إله إلا الله كانت هناك يوم أعلن براءته مما يعبده قومه.. ومن ثم يوم أعلن براءته من مجتمعه وقومه..

في البراءة الأولى أسس العبادة الجديدة: عبادة لا إله إلا الله، وفي البراءة الثانية، أسس المجتمع الجديد.. مجتمعاً قوامه العبودية والتوحيد الخالص..

كانت لا إله إلا الله هناك في كل خطوة في الرحلة الإبراهيمية، وكانت بالتأكيد يوم وضع ذلك الحجر الأساس للحضارة "المختلفة".. حضارة لا إله إلا الله..

* * *

والعلاقة بين الشهادتين هي مثل العلاقة بين السبب والنتيجة وبين الجذر والثمرة.. لكن الشهادة الأولى، لم تحقق ذاتها تماماً على يد إبراهيم، وإنما لم تكتمل إلا على يد الرسول الكريم عليه أفضل الصلاة والسلام، وكان اكتمالها، في التوحيد الخالص الذي لم يتحقق إلا مع مجيء رسول الإسلام، إيذاناً بختم النبوة والرسالة.... لذلك فإن الشهادة الأولى، صارت تحتاج أن تثبت ذلك وتسجله.. صارت لا تكتمل إلا بالشهادة الأخرى، وكلتاهما صارت تقدم رؤية واحدة متحدة، امتزجت الشهادتان لتقدم رؤية واحدة، بالضبط كما تقدم عينان في رأس واحد، رؤية واحدة، رغم أنهما عينان وليستا عيناً واحدة..

شهادتان، مثل معادلتين، نحتاجهما لفهم علاقتنا بالأشياء من حولنا.. ولتنظيمها..

* * *

صوت صارخ في البرية، يؤذن في الناس، أن "لا إله إلا الله" وأن محمداً رسوله..

عبر القرون والقارات.. الصوت صار أكثر وضوحاً، لم يعد "هائماً" يحذر الناس من أن الله "أكبر" مما يتصورون، أو مما يعتقدون، كما كان الصوت الصارخ الملتحم بـ "الله أكبر" أول مرة، الآن صار الصوت يمتلك رؤية.. الآن صار الصوت مجسماً بأبعاد متعددة، إنه لا يحذر الناس، بل يدلهم على طريق واضح..

صوت صارخ في البرية، يقول أهم ما يمكن أن يقوله صوت إنسان، يقول الحقيقة الوحيدة غير القابلة للأفول..

منطق التسلسل في الأذان

الجمل الثلاث الأولى في نص الأذان تمتلك تماسكاً وتسلسلاً منطقياً.. إنها تبدأ بأن الله أكبر.. ويعني ذلك، أن هناك أشياء كبيرة في حياتنا، ومهمة، وأخرى أصغر، وأقل أهمية، يعني ذلك أن هناك أولويات، وتراتباً بين الأمور التي تواجهنا ونواجهها في الحياة.. وأن قمة التسلسل، يجب أن تكون محسومة دوماً، مهما كان، ومهما حدث، فالله، سيظل، أكبر..

الشهادتان، لاحقاً، تنظم الأمر أكثر، فترتيب الأولويات سيكون في خلل إذا بدأنا بالخضوع لأمر من هذه الأمور الأخرى، التي يجب ألا يكون ترتيبها على القمة.. لأن القمة محجوزة سلفاً وحصرياً لمن هو خارج التقييم والقياس، سبحانه وتعالى عن أي تشبيه..

معيار خضوعنا، وعدم خضوعنا، يتحدد عبر الشهادة الثانية، التي هي الجملة الثالثة في الأذان، التي تربط حلقات المسبحة بعضها ببعض، وتجعل لها القوام والتماسك، تنقلها من عالم الأفكار المجردة، إلى أرض الواقع، إلى عالم التجربة الإنسانية..

إلى واقع الحياة الإنسانية..

* * *

لكن هذه الجمل الثلاث كلها، على أهميتها، ليست سوى مدخل افتتاحي، للمقصد من الأذان كله..

النداء لإقامة الصلاة..

دعوة إلى الحياة

"حي على الصلاة"..

على آذاننا تراكم الكلس والصدأ.. أم على عقولنا، أم على أبصارنا، أم تراه على قلوبنا؟ أم أن الكلس والصدأ قد تراكم على كل ذلك، دفعة واحدة، وجعلنا لا ننتبه لهذه الكلمة..

"حي على الصلاة"..

تمر على آذاننا - على كل ما نحن عليه - فلا نجد فيها غير دعوة لأداء الصلاة..

ولا ننتبه إلى أنها، أولاً، دعوة للحياة!..

* * *

"حَيّ" أخذناها دوماً على المعنى المباشر: الإقبال.. ولم ننتبه إلى أن هذا المعنى قد اشتق أصلاً من فعل الحياة.. الذي سينبثق منه الإقبال الذي وقفنا عنده..

إنها دعوة للحياة، ولكن ليس لما تعودناه من حياة؛ ليس لذلك النمط العادي العابر من محض حياة بيولوجية "دنيا" بل لحياة من نوعية أعلى، حياة حقيقية..

أو بعبارة أخرى: حياة، نؤمن نحن، أنها هي الحياة الحقيقية.. ونؤمن، أن محك ما هو حقيقي، وغير حقيقي، هو هذا القرآن الكريم الذي يحسم، وحده، الحقيقة والزيف..

* * *

والحياة، لغة، ضد الموت. فبعض الأشياء لا تفسر إلا بضدها.. لكن هل نعرف حقاً ما هو الموت وكنهه - لكي نعرّف الحياة أنها ضد الموت..

إنَّ هذا لا يوضح حقاً جوهر الحياة، إنه يصفها فقط.. يرسم صورة خارجية لها..

لكي نفهمها، ربما نحتاج إلى صورة "شماعية"..

* * *

في خمسة مواضع، في القرآن الكريم، تأتي لفظة "الحياة" وبعض مشتقاتها، بشكل يتجاوز الوصف والتوصيف.. إلى الجوهر..

خمسة مواضع، نفهم منها ماذا تعني الحياة حقاً، وربما

نستطيع أن نعرف بعدها، إن كنا أحياءً حقاً، أم أننا نتظاهر فقط بذلك؟!..

* * *

﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ [النحل: ١٦/٦٥].

﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [البقرة: ٢/١٦٤].

الحياة إذن ليست "حالة" تنتج من عدم الموت، إنها حالة نكونها، وتكوننا، كما الأرض مع الماء، عبر الإثمار، عبر الإنتاج.. عبر تقديم ما هو مفيد ومثمر.. لكل من يتعلق به الأمر..

الحياة، هي ألا تكون أرضاً بوراً؛ بل أن تتحدى الجدب لتقتنص الخصب ..أن تثبت أن بإمكانك أن تستخرج من أعماقك ما يستحق أن يظهر على السطح، أن تتفاعل لتنتج في نهاية التفاعل شيئاً يجعل الحياة أفضل..

الحياة بمعايير "قرآنية"

ليست الحياة، قرآنياً، أن تكون وظائفك البيولوجية على أتم وجه.. بل أن توظف نفسك فيما خلقت من أجله، أن تعمل على تشكيل العالم بشكل أفضل وأفضل دوماً، أن تثمر، أن تنتج، أن تكون جزءاً من "أرض أفضل"، ولو بأن تكون سماداً عضوياً لحصاد قادم..

* * *

هذه هي الحياة إذن ..الحياة "غير" الدنيا..

ولكن، ما علاقة هذا بالصلاة؟..

بالصلاة التي تعودناها، لا علاقة طبعاً، بصلاة إسقاط الفرض، والصلاة كيفما كان، صلاة الهرب من عقوبة ترك الصلاة..

لا علاقة لهذا النوع من الصلاة، بالحياة، بحي على الصلاة.. أما الصلاة الأخرى، الصلاة كما يجب أن تكون، تشييداً للإنسان والمجتمع، فهي ترتبط مباشرةً بمعنى الحياة..

بالذات بالإحياء..

* * *

تؤدي الصلاة، كما يجب أن تكون، مع الإنسان/ المجتمع، الدور ذاته الذي يقوم به الماء مع الأرض..

هذا الماء النازل من السماء يتفاعل مع الأرض ليحييها، يجعلها منتجة، مثمرة..

و "الصلاة".. بإمكانها أن تفعل الشيء ذاته، عندما تختزن في داخلها رؤية الحياة، عندما تتجسم في كلماتها وحركاتها، فإنها بإمكانها أن تتفاعل مع جثة هامدة - تتنفس نعم ولكنها ميتة عملياً - تنفخ فيها الحياة.. تبث فيها الحيوية.. لتحولها إلى إنسان فاعل يقوم بدوره على هذه الأرض..

الماء، الصلاة.. والحياة..

"حي على الصلاة"..

لست حياً بالصلاة، عبر الصلاة، بل إنك حيٌ "على" الصلاة، لأنها سترتقي بك، خطوة تلو أخرى، إلى الأعلى، ستكون هي منصتك للارتقاء..

ستكون حياً على الصلاة..

* * *

صوت صارخ في البرية، يصرخ بك ألا تترك فرصة الحياة تفلت من يديك، يحذرك من الانغماس في موتك اليومي.. ينبهك إلى أن الحياة قد تتسلل، قد تهرب.. إذا أصررت على الاستمرار بتلك الحياة الدنيا، التي هي مجرد "موت" بقناع زائف للحياة..

الدعوة إلى الإثمار

لكن الأمر لا ينتهي هنا؛ عند الدعوة إلى الحياة من خلال الصلاة.. بل هناك خطوة أخرى، تؤكد ذلك المفهوم للحياة، وتؤكد ذلك الدور للصلاة..

إنها "حي على الفلاح"..

* * *

بطريقة شديدة الوضوح، استبدال كلمة الفلاح بالصلاة يعني أن العلاقة بين الصلاة والفلاح هي علاقة مساواة تامة..

تعودنا طبعاً أن الفلاح يعني الفوز. بالنسبة إلى الفهم

المباشر ذي البعد الواحد فإن ذلك سيفسر فوراً، بأن أداء الصلاة، سيؤدي إلى الفوز، بما أنه ينجي من النار ويدخل الجنة..

وهذا الفهم سيظل موجوداً، لكن تصور أنه البعد الوحيد هو تصور قاصر لمعنى الصلاة، ولمعنى الفلاح، ولعلاقة التساوي بينهما..

لفظة الفلاح، مشتقة أصلاً من الفعل "فلح"، والذي يعني شق الأرض وقطعها.. والذي تشتق منه أيضاً كلمة الفلاحة، والفلاح.. إلخ، كما هو واضح..

المعنى الذي يقف عند "الفوز"، يكون قد قطع شوط الفلاحة إلى آخره، وتجاوز شق الأرض، إلى الحصول على الثمرة.. إلى الحصاد.. لكنه يظل يحتوي الفعل الأصلي للمفردة.. يظل منضوياً تحت المعنى الأصلي لفلح.. ولتجلياته..

* * *

ما معنى هذا بالضبط؟.. وما معناه هنا تحديداً؟.. وما مغزى علاقته (علاقة التساوي) بالصلاة؟.. وما علاقته قبلها بالحياة؟..

المعاني متقابلة ومتوازية.. فإحياء الأرض - المثل القرآني عن معنى الحياة - ارتبط بشكل مباشر بالأرض وهي تقوم من مواتها وبورها.. وتتقدم إلى الخصب والعطاء.. والإثمار..

مع "حي على الفلاح".. الحياة تؤخذ إلى أفق جديد من المعنى نفسه: إحياء الأرض..

في الجملة الأولى: الماء ينزل ليحيي الأرض.. تتفاعل معه لتقدم ثمرتها..

في الجملة الثانية: هناك عامل آخر يدخل، فليس كل الثمار تخرج بمجرد تفاعل الأرض مع الماء؛ هناك ثمار تتطلب عملية شق للأرض، قطعها، تسميدها، تتطلب جهداً، ولا بد أن يكون إنسانياً.. ليصل إلى الثمرة..

فالفلاحة هي هنا بذل ذلك الجهد الإنساني للوصول إلى ثمرة أكثر تعقيداً ..للوصول إلى حياة بمقاييس وقيم أعلى..

وهذا هو أيضاً المفهوم الأعلى لإقامة الصلاة.. أن تبذل المزيد من الجهد للوصول إلى أداء دورك في هذه الحياة..

"الفلاح" هنا هو دورك الحقيقي في هذه الأرض، أن تقطعها وتحرثها وتضع البذرة فيها، تسقيها بشرايينك، من أجل أن تتركها بحال أفضل مما وجدتها عليه..

الصلاة = الفلاح

(الصلاة - الفلاح)، ثنائية الترادف والتكامل والتساوي والتفاعل، أكثر من مجرد كلمتين تستعملان لحثك على التوجه لأداء الصلاة.. إنهما كلمتان تعلمانك جوهر هذه الحياة، عبر الدعوة إلى الحياة الحقيقية، وإلى إنجازها.. إلى تشييدها.. إنهما كلمتان تذكرانك بأن الفوز الحقيقي في الآخرة لا يمكن أن يكون منفصلاً عن تشييد حياة ليست "دنيا" على هذه الأرض..

إنهما كلمتان تذكرانك أن الحياة هي شيء آخر غير مظاهرها العابرة؛ وأن عملية "الإحياء" عملية متواصلة ومستمرة، وأنها تحتاج إلى تدريب مستمر.. (خمس مرات في اليوم الواحد..).

* * *

صوت صارخ في البرية، يقول لك: إن "الإحياء" دربه يبدأ من تلك الصلاة الشامخة..

صوت صارخ في البرية، يقول لأمة دفنت نفسها في الأرض الموات، أن الإحياء ممكن..

وأنه يبدأ من الاستجابة لتلك الدعوة..

"الناس نيام.. فإذا ماتوا انتبهوا "

يحتوي الأذان، إضافة واحدة، تخص صلاة الفجر تحديداً.. وتستحق الوقوف، لأنها إضافة تضيف "معنى" إلى سائر الأذان..

إنها "الصلاة خيرٌ من النوم"..

للوهلة الأولى، سيبدو الأمر يخص النائمين فقط؛ النائمين بالمعنى المباشر: إنه يهزهم بشدة لينبههم من ذلك النوم البيولوجي.. لكن كل تلك المعاني متعددة الأبعاد، المنبثقة من كل لفظ من ألفاظ الأذان، سيقود إلى وجود معنى عميق أيضاً، كامن، في تلك العبارة التي تخص صلاة الفجر.. وأشدد على أن المعنى الكامن، لا يلغي المعنى المباشر، بل يقويه..

هل النـوم هـو نوم بيولوجي فقط؟.. أم إنه قد يكون غير ذلك؟..

وما هو "النوم" حقاً - في جوهره - غير إيقاف جميع العمليات الإرادية في الجسم ووظائف الأعضاء، والاستمرار في العمليات اللا إرادية: مثل التنفس، الهضم،... الأيض.. إلخ؟ لكن، أليس هذا يحدث أيضاً، مع بعض الإضافات هنا وهناك، عند الكثيرين: أن تستلب إرادتهم، ويكفون عن أداء ما هـو إرادي حقـاً، علـى الأقل دون أن تكون لـه وظيفته الأصيلة حقاً.. حتى لو كانت عيونهم مفتوحة على اتساعها، حتـى لـو كانوا يـروحون ويجيئون طوال الـوقت.. لكنهم لا يفعلون شيئاً حقـاً - إنهم نيام تقودهم غـريـزة القطيع المـاضي إلـى هـاويته أو مقصلته، استلبت كل إرادتهم.. وصاروا كالمنومين.. كالنيام تماماً..

شعوب بأسرها، أمم بأكملها، تغط في نوم كهذا، نوم وسبـات تاريخيين، دون أن تشعر بهذا.. كالنـائم الذي لا يشعـر بشخيره (يستيقظ في هدوء لا يعرف شيئاً عن الضجة التي كان يحدثها، ولن يصدق ما تقوله له زوجته وأولاده عن ذلك!)..

و "الصلاة خيرٌ من النوم".. لأنها رديف الحياة في هذه الحالة، رديف التفاعل، رديف النهوض من النوم، أو النهضة من السبـات، أو كل مـا هـو ضد القعود، السكون، النوم، الموت..

* * *

صوت صارخ في البرية، فجراً، أن الصلاة خير من النوم، مهما تطاول النوم، مهما كان قديماً ومحصناً بقدمه..

صوت صارخ في البرية، لعل الفجر يقدح زناد شرارة "نهوض" ما..

* * *

لماذا هي إذن في أذان الفجر تحديداً، وليس في كل أوقات الصلاة ما دام "النوم" ليس بالضرورة نوم الليل بل هو الآخر بمعناه الواقع؟ ربما لأن الفجر برمزيته التي تشير إلى بداية الأشياء، وبَدْء انبثاقها وتفجرها، يمكن أن يكون الأنسب لكي تنفض الموت من حياتك، وتبدأ من جديد، ربما لأن الفجر، بكل ما يمثله من ولادة جديدة، فرصة لك لكي تولد من نومك، من موتك اليومي الذي ربما دام حياتك كلها..

في كل لحظة، في هذا العالم، هناك فجر (ما) يولد..

وفي كل لحظة تستطيع أن تبتكر (فجرك)، أن تولد من جديد من رحم نومك..

في كل لحظة من حياتك، هناك فجرٌ ما يولد في هذه الأرض..

وهناك:

"الصلاة خيرٌ من النوم"..

الفصل الثاني

الأوقات الخمسة: أن تصير جزءاً من هذا العالم...

﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا﴾ [النساء: ١٠٣/٤].

قراءة النظرة الأولى لهذه الآية، تفسر الأمر أنه حض على الالتزام بأوقات الصلاة.. وهو تفسير لن تلغيه قراءة النظرة الثانية، أوالثانية بعد الألف، لكن القراءات التي تحفر في النص عمقاً وطولاً وعرضاً، قد تجد أبعاداً أخرى، لما هو ضروري ومهم أصلاً..

* * *

أهم ما في حياتنا، وربما موتنا، سيختار له الخطاب القرآني، منزلة الكتاب.. وسيكون في كتاب.. يوماً ما كل ما فعلناه، وأيضاً كل ما لم نفعل، وكان علينا أن نفعله، سيكون في كتاب.. سيكون يوماً ما منشوراً..

﴿وَنُخۡرِجُ لَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ كِتَٰبٗا يَلۡقَىٰهُ مَنشُورًا﴾ [الإسراء: ١٣/١٧].

* * *

حتى موتنا، الذي سيتوج رحلة حياتنا بالإنجاز، أو

ينكسها بعدم الإنجاز، ما هو إلا كتاب.. إلا أنه كتاب "مؤجل"..

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا﴾ [آل عمران: ٣/١٤٥].

* * *

وهكذا فإن كل "الكتب" التي وردت في الخطاب القرآني، هي كتب "مؤجلة" - محتمة، لكن موعدها مؤجل إلى وجه آخر وحافة أخرى من بعد الزمن..

كلها كتب، باستثناء كتب الوحي الإلهي، سيكون موعد نشرها، هناك.. في الآخرة..

إلا كتاباً واحداً فقط.. سيكون موعده دنيوياً..

كتاب الصلاة!..

وسيلة لقراءة العالم

الصلاة إذن ليست فقط "مكتوبة "علينا..كما كتب الصيام و القصاص في القتلى.. إلخ..

بل إنها هي "الكتاب"...

والفرق بين أن تكون (مكتوبة).. علينا، وأن تكون هي ذاتها كتاباً، فرق كبير..

والفرق أن ما كتب علينا، علينا أن نؤديه..

أما ما هو "كتاب" فإن الأمر يتجاوز الأداء المجرد إلى اتخاذه وسيلة لقراءة العالم..

إنه الفرق بين ما هو مكتوب علينا.. وما هو مكتوب لنا..

والصلاة، بصفتها الكتاب الموقوت، الكتاب الموجود فعلاً في الدنيا، هي مكتوبة لنا، وسيكون أداؤها - الحقيقي -قراءة في هذا الكتاب.. قراءة للعالم، من خلال هذا الكتاب..

* * *

لكن هذا الكتاب، القراءة فيه ليست حرة.. ليست بلا ضابط ولا رابط..

إنه كتاب "موقوت".. ويعني ذلك أن القراءة فيه، محكومة بالوقت، ومضبوطة فيه، ومربوطة فيه، كما ترتبط قنبلة موقوتة بعقارب الساعة..

مع فارق أن الكتاب الموقوت، قد يهيئ لك حياةً أخرى..

* * *

سيضيق بعضهم ذرعاً، لم يرتبط أي كتاب بالوقت؟.. قد نفضل قراءته عندما يكون الوقت مناسباً لنا، من قال إن ما هو مناسب لنا، سيكون مناسباً لغيرنا؟..

لا، هذا الكتاب "موقوت" تحديداً.. وصفته هذه، هي الصفة الأولى فيه، لقد ذكرت بشكل حاسم وقاطع وأولي، بطريقة لا يمكن أن تجعل الارتباط بالوقت مسألة ثانوية، أو مجرد وصف زائد..

"الوقت" في صميم هذا الكتاب، يكاد يكون جزءاً منه، من سطوره وأحرفه، ومن مبتدئه وخبره..

لا، ليس "يكاد"..

بل هو فعلاً.. الوقت جزء من جوهر هذا الكتاب.. الكتاب الموقوت..

* * *

لكن، لماذا؟..

سيكون هناك جواب مباشر عن الالتزام بالوقت، كدلالة للخضوع له وطاعته سبحانه وتعالى..

وهذا شيء أكيد، لكن ربما هناك كنوز "أكبر" في الأعماق من الأبعد للبحر..

عنصر الوقت في معادلة التفاعل الكوني

مع الصلاة، عامل الوقت، يكاد يكون أهم من أي شيء آخر..

وهو بالتأكيد أهم من عامل المكان.. فبينما الصلاة يمكن أن تُؤَدَّى في أي مكان، في الأرض الخلاء، على أرض المطار، في غرفة صغيرة تحت الأرض، في الزنزانة، في عنبر السرطان، في الطائرة، في غرفة فندق تعاقب عليها الغرباء، في القطار في رحلة لا تعرف أين محطتها الأخيرة، في بيت ولدت فيه وكبرت فيه وستموت فيه أيضاً، أو في بيت تعاقب عليه سكان قبلك وسيتعاقبون بعدك، في مسجد صليت فيه صلاتك الأولى، وسيصلون فيه عليك عندما ترحل، أو في مسجد عابر تماماً لا تذكر غير أن عقارب الساعة وضعتك فيه..

الأرض كلها، مسجدٌ، لك.. وطهور..

صلاتنا مربوطة بعقارب ساعة كونية عملاقة تسير العالم كله.. ما الذي يعنيه بالضبط هذا؟..

يعني أنك، عندها فقط، وعند الالتزام بوقتها، تصير جزءاً من هذا الكون العملاق.. لأنك، من خلال ثغرة الزمان، ستدخل هذا الكون فعلاً..

أما عندما تكون خارج "الزمان" فإن وجودك في المكان، لا معنى له على الإطلاق..

من ثقب صغير، هو ثقب الزمان، تدخل إلى حيز الوجود الحقيقي.. تدخل إلى معادلة الحضارة والفاعلية، قبل ذلك، أنت الهباء بعينه..

الساعة الكونية: من الشمس إلى نبتة الباقلاء

الدخول إلى ثقب الزمان، عبر الارتباط بالصلاة الموقوتة، يجعل منك مربوطاً بتلك الساعة الكونية..

ما هي الساعة الكونية ؟ إنها، باختصار شديد، ذلك الزمن الذي يعبر عن حركة الكون كله، بمقاييس مختلفة، بنسب متباينة، بأشكال ومظاهر متعددة، قياس اليوم هنا على كوكب الأرض قد يختلف عنه على المريخ أو على عطارد، أو في ركن قصي ومتباعد من أركان الكون، لكن الزمن، كمفهوم، يعبر عن الحركة، عن المسافات، عن العلاقة بين الأشياء، بتداخلها وتباعدها..

* * *

ما الرابط بين الساعة الكونية، وحركة الأجرام، والصلاة على وقتها؟..

خطوة خطوة، سنفهم ذلك..

* * *

كل الكون، مرتبط بعضه ببعض بشكل يكاد يكون في بعض أجزائه شديد الآلية.. وشديد التداخل..

ربما لأننا نسكن جزءاً من هذا الكون، وقد تعودنا على هذا الجزء حد البلادة، فإننا لا نستطيع فهم الارتباط والتداخل الذي ينعكس على هذا الجزء من العالم، بل الكون.. كلّه..

* * *

لكن شيئاً صغيراً، مثل نبتة خضراء صغيرة.. من تلك التي يُجْري عليها الأولاد في المدارس تجارب علمية بسيطة، قد تعيدنا إلى رشدنا.. إلى انتباهنا لتلك العلاقة، بين محض نبتة باقلاء (على سبيل المثال) صغيرة، وبين نجم هائل الحجم، هو مركز المجموعة الشمسية..

* * *

كلنا يعرف طبعاً عملية التركيب الضوئي التي تقوم بها النباتات من أجل أن تستمر بالحياة وبالوظائف الحيوية، إنها تقوم بطرح الأوكسجين وتتنفس ثاني أوكسيد الكربون من خلال عملية معقدة تستغرب كيف أن نبتة صغيرة تقوم بها..

عملية التركيب الضوئي تعتمد على الضوء.. كما هو واضح من اسمها ولقبها.. وهذا الضوء، ليس "أنبوبة نيون" عمرها لم يتجاوز القرن الواحد، بل هو، ضوء الشمس طبعاً..

ولأن الكون متداخل، والعلاقات بين أكبر أجزائه وأصغرها متشابكة، فإن نبتة صغيرة تحتاج إلى الشمس في نموها، وما كان لها أن تنمو، أو أن تكون، لولا ضوء الشمس، الذي يعني، ضمن ما يعني، تلك الحركة التي تجعل الضوء يأتي تارة وينحسر تارة أخرى..

أي حركة الليل والنهار..

* * *

وأوضح من هذا، النباتات التي تتفتح أوراقها باتجاه الشمس، وتنكفئ معها عند غروبها، وهي فصيلة نباتية معقدة تضم أنواعاً مختلفة تتفتح كل منها نحو الشمس، لكن في وقت مختلف، حسب موقع الشمس في السماء، مما جعل بعض العلماء يعمد إلى ابتكار ساعة نباتية، تتكون من أنواع مختلفة من النباتات، لكل منها موعد مختلف في التفتح، ويتم بذلك معرفة وقت بعينه من خلال تفتح الزهرة المعينة..

هذا الارتباط الذي يأخذ شكلاً واضحاً في بعض النباتات، قد يأخذ أشكالاً أعمق وأقل ظهوراً في كائنات أخرى، قد تشمل أحياء صغيرة مثل البكتريا، والطحالب.. وصولاً إلى الإنسان..

في داخلنا "ساعة"

في داخل كل منا، وداخل كائنات أقل شأناً منا، هناك "ساعة ما"، تعرف بالساعة البيولوجية، تعمل دونما انقطاع، لا تحتاج أن تملأ بطاريتها، ولا تحتاج لضبطها على غرينتش، أو تغييرها حسب التوقيت الصيفي أو الشتوي.. إنها تعمل تلقائياً، وتقوم بكل التعديلات دون أن تترك لك فاتورة التصليح..

لكن تغييرات مفاجئة وسريعة، قد تجعلك تشعر بهذه الساعة البيولوجية وبدقاتها المتسارعة.. بل قد تجعلك ممزقاً بين عقاربها الداخلية، وعقارب الساعة في الخارج، كما سيحدث عندما تنتقل من قارة إلى قارة أخرى بعيدة، تكون حركة النهار في القارة الجديدة في أوجها، بينما ساعتك الداخلية ترفض ذلك، وتقول إنه منتصف الليل.. الساعة البيولوجية هذه لم تعد مجرد ملاحظات شبحية.. ولا استنتاجات دونما دليل.. لقد صارت، وابتداءً من سبعينات القرن المنصرم فرعاً خاصاً من علم الأحياء (علم البيولوجية الزمني Chronobiology)، وصار قائماً على حقائق علمية وتشريحية وفسيولوجية تجاوزت الظن والافتراض..

يقع مركز هذه الساعة (master clock) في النواة فوق المتصالبة الوطائية (suprachaismatic nuclei) الموجودة في غدة تحت المهاد (hypothalmus) من الدماغ. هذا هو مركز الساعة أو قلبها. أما عقارب الساعة، إن شئنا، فهي

موجودة في كل جزئيات جسمنا حرفياً، لأنها ذات طبيعة جينية (موروثة) وتعمل على التحكم وتنظيم هذه الساعة، عبر إنتاج بروتينات عديدة يتم من خلالها تشغيل الساعة..

ما الذي تفعله هذه الساعة بالضبط: إنها، باختصار، تنظم عمل أجهزتنا الحيوية وفق إيقاع يومي circadian rhythm، تنظم النوم واليقظة، الأيض، إفراز الهرمونات، إعادة بناء الخلايا، وتوجيه النشاط الموجي للدماغ..

أي إنها باختصار، تضع يدها على حيوية الإنسان، وفعالياته المختلفة، وتضعها ضمن إيقاع يومي دوري..

وعندما نقول "يومي" فإن ذلك لم يكن مصادفة.. فهي مرتبطة فعلاً بالإيقاع اليومي.. أي إنه إيقاع مرتبط بتلك الفترة الزمنية التي تستغرقها الأرض في الدوران حول محورها الذي ينتج عنه: اليوم..

أي إننا مجدداً، أمام حركة الكون.. حتى في إفراز هرمون في جسمنا.. نحن، مجدداً، أمام تعاقب الضوء والظلمة.. التعاقب الذي يتحكم بالنباتات والطحالب.. كما يتحكم بأجزاء منا..

وحدة الخليقة ممثلة في الساعة البيولوجية

ويضعنا ذلك، مباشرة، مع الكون كله، في "وحدة خليقة"، في خليقة متوحدة مع ذلك النظام المتعاقب الذي يحكم الكون..

الساعة البيولوجية لأي فرد منا، بل لأي طحلب، تربطه،

دون وعي منا، أو من الطحلب!! بالساعة الكونية الكبرى التي تضم العالم بأسره.. وهي الساعة التي يكون تعاقب الضوء والظلمة، أو الليل والنهار، فيها، بمثابة البندول الأساسي لاستمرار دورانها.. واستمرار دقاتها..

* * *

أدق عملياتنا الحيوية إذن، موقوتة..

إفراز الهرمونات التي تحفز على النمو.. عمليات بناء الخلايا، وأيضاً هدمها.. عمليات موقوتة.. بمعنى ارتباطها بتعاقب الليل والنهار.

تنظيف الجسم مما تراكم فيه، وإعادة تنظيمه.. عملية موقوتة..

نشاط الدماغ، وحيويته وفعاليته.. عملية موقوتة.. بنفس المعنى.

فإذا كان كل ذلك، بكل ما فيه من معان، إذا كان بناء الخلايا، عملية موقوتة، فكيف لا تكون الصلاة أيضاً كذلك.. الصلاة التي هي عملية نهوض وبناء وتشييد لإنسان ولمجتمع.. لا بد أن تكون أيضاً "موقوتة"..

وكما أن تعاقب الليل والنهار هو "بندول" تلك العمليات الحيوية في داخلنا..

فإن الصلاة، عملية الحياة التي نصنعها، تسير أيضاً خلف البندول ذاته: خلف تعاقب الضوء والظلمة..

فلسفة "الأوقات الخمسة"

ومواقيت الصلوات الخمسة[١]، هي باختصار شديد، علامات (موقوتة) على تتبع ذلك البندول.. وتفاعل مستمر مع حالتي الضوء والظلمة، والحالة التي هي بين الضوء وبين الظلمة: الظل..

قد نعتقد أحياناً أن الحد بين الظلمة والضوء حد فاصل وواضح، وأن صلواتنا تبدأ قبل الضوء بقليل (الفجر)، لتنتهي بعد هبوط الظلمة بقليل (العشاء)..

لا، الأمر أعقد بكثير، وفي تفاصيله توجد حكاية من حكايات النوع البشري في مطاردته للضوء.. وفي الإمساك به أحياناً، وتركه يفلت أحياناً أخرى..

الأوقات الخمسة أعمق بكثير مما نظن، وخلف كل وقت من هذه الأوقات، توجد ملحمة من ملاحم الإنسان، وهو يصنع حياته..

* * *

الفجر، فيزيائياً، هو الانتقال من منطقة الظل التام -

(١) لست ممن يتصورون أن الأوقات الخمسة للصلاة لا دليل عليها في القرآن الكريم وإنما فقط في السنة النبوية المطهرة. صحيح أن وجود ذلك في السنة الصحيحة المتواترة كاف عملياً، لكن وجود آيتين تخاطبان الجيل الأول بأقم الصلاة- و في الفترة المكية اللاحقة للإسراء - و هو الوقت الذي فرضت فيه الصلوات الخمس يعطينا معاني وآفاقاً جديدة عن الموضوع. الآيتان هما ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ﴾ [الإسراء: ١٧/٧٨]- و ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ﴾ [هود: ١١/١١٤].

(الظلمة التامة) إلى منطقة شبه الظل.. وفيها نجد الشفق الأبيض، ونجد فيها خيطين: خيطاً أبيض وخيطاً أسود..

كم يشبه ذلك ما نقابله في حياتنا.. عندما تتشابك الأمور و تتشابه، يصير من الصعب التمييز بين ما هو أبيض وما هو أسود، إلا بصعوبة شديدة، كم يشبه ذلك ما نمر به من ظلمات، واحدة تلو أخرى، ويكون بينها أحياناً ظلمة أقل، شبه ظل، لكننا نعجز عن تصور أن تلك الظلمة الأقل، يمكن أن تفتح الباب نحو الضوء..

صلاة الفجر، قبل الضوء، بين الظلمة والظل، تمسكٌ ويقين بأن الضوء لابد طالع..

وأن الظلمة، ذلك الظل التام، الذي تتشابه فيه الأشياء، وتضيع فيه التفاصيل، لا بد زائلة..

الفجر، ترقب للضوء الذي لن يشرق فحسب.. بل سينبع من الداخل، ما دام الكون وحدة واحدة، متصلة مع بعضها بعضاً..

* * *

الظهر، فيزيائياً، هو منطقة الضوء التام.. إنه وقت الزوال، حيث لا ظل هناك.. حيث الشمس في أعلى نقطة لها في السماء.. ويذكرك ذلك بهدفك في الحياة، أن تكون في أعلى نقطة، وأن تتوحد أنت وظلك فيها..

ولن يكون مصادفة أن يحدث ذلك في الوقت الذي تكون فيه أنت (بيولوجياً) في ذروة نشاطك..

العصر، هو الطرف الآخر المقابل للفجر، فبينما كان الفجر انتقالاً من الظل التام إلى شبه الظل، فإن العصر هو الانتقال من (الضوء التام) إلى شبه الضوء.. وهذا يعني أن الضوء صار يخالطه شيء من شبه الضوء، وأنه لم يعد تاماً، وأن الوهج قلَّ، وأن القمة لم تعد قمة.. وإنما هبطت عن الذروة، خطوة، تلو خطوة..

ربما هذا يحدث، لكننا ربما كنا نحتاجه، ربما كنا نحتاج أن يخف الضوء قليلاً بعد وهج الشمس القائمة، ربما كنا نحتاج إلى الانسحاب إلى ضوء أقل للاستراحة، للتقييم..

ربما كان ذلك هبوطاً، ربما كان انحساراً للضوء، ربما هو الإنسان الذي لا يستطيع المحافظة على القمة، الإنسان الذي هو "في خسر"... وربما كان ذلك مجرد مرحلة انتقالية، يستطيع "الذين آمنوا" أن يمروا من خلالها إلى أفق أفضل..

أيَّاً كان، إنه العصر، والضوء لم يعد ضوءاً تاماً، بل خالطه شيء.. وها أنت ذا تقيم صلاتك على هذه النقطة الانتقالية بالضبط.. لتحدث خرقاً في جدار الكون.. وتثبت أنك جزءٌ منه، وأن وعيك بما يدور سيجعلك قادراً على المضي قدماً..

* * *

.. ثم يأتي الأفول..

يأتي الانتقال ممّا هو شبيه بالضوء إلى ما هو شبيه

بالظل.. ذهب الضوء إذن، وما نراه لم يعد سوى بقايا ضوء منحسر، وبداية الظل.. إنه الغروب.

إنه القانون المحتم الأكيد الذي لا بد أن يسود.. قانون الأفول.. مهما علا شيء، مهما زها، مهما وصل إلى أعلى القمم، فهو لا بد زائل.. سواء كان فرداً أم فكرة.. أم حضارة.. لا بد أن يهبط.. لا بد أن يأتي عليه أوان الأفول..

عند تلك النقطة، والضوء قد أعلن هزيمته، ورفع رايته البيضاء، ستجد نفسك تترك علامة على هذه النقطة بالذات، وعند هذه النقطة، ستسجد لمن لا يأفل أبداً، لمن وضع قانون الأفول..

* * *

ثم جاء الليل..

إنه الظل التام هذه المرّة.. لا شبه ولا ضوء.. كما كانت الحقيقة ساطعة في الضوء التام، فالظلمة أيضاً صارخة في الظل التام الذي يلف عالمك ومحيطك..

وعلى الرغم من هذه الظلمة، وعلى الرغم من هذا الظل التام، فإن الرؤية قد تكون أفضل وأوضح، لقد انسحبت الآن من المشهد، نحو الظل، وهناك صار بإمكانك أن تراقب كل ما جرى، كل ما دار.. هناك، في ذلك الظل التام، ستستطيع أن تحتفظ بمسافة ما عن الأشياء، ومن خلال هذه المسافة ستعيد النظر.. وهناك، في الظل التام، ستعرف أن كل ما جرى كان محض جولة،

وأن فجراً آخر، سينبعث من عمق العتمة.. ويبدأ جولة جديدة..

من هذه الحقيقة، تحت جناح الظلام المخيم، وأنت تنتظر فجراً آخرَ يخرجك من العتمة، وتعبر به نحو الضوء.. ستصلي ..وستكون صلاتك هنا "ضوءاً في الظلمة"..

حكايتنا مع الضوء والظل..

حكاية الضوء والظل هذه، التي نصلي عند تبدلاتها، هي حكايتنا جميعاً، منذ أن نخرج من ظلمة الرحم، ونواجه الضوء، ونحن نتنقل بين الظلمة والضوء، ظلمة من بعد ظلمة، وضوءاً من بعد ضوء..

بعض الناس- كالخفافيش- يصرون على الظلمة.. يتقصونها.. هل يخافون الضوء؟.. هل يتصورون أنهم لن يتمكنوا من العيش فيه؟

بعض الناس يصرون على العيش في الظل.. ظل فكرة أخرى.. ظل شخص آخر.. ظل حائط آخر.. إنهم لا يتصورون إمكانية أن يكون لهم ظلهم الخاص بهم.. لذا هم دوماً مجرد ظل..

بعض الناس يتوهمون أن البريق اللامع هو الضوء.. لذا يتبعونه ويتابعونه ولو كان برقاً خاطفاً..

بعض الناس، يصرون على ألا يروا الضوء.. إنه "العمى" الاختياري الذي يجعلهم غير قادرين على الفرز، على تحسس الضوء..

وبعض الناس، تكون حياتهم كلها رحلة ضوء، يضيئون لمن حولهم، أحياناً بفكرة، أحياناً بجملة عابرة، أحياناً برغيف خبز.. وأحياناً بكتاب..

الضوء، والظلمة، والظل بينهما، ثلاث نقاط، نقضي حياتنا بينها..

* * *

ومن أهم ما نخرج به من ذلك الكتاب الموقوت، هو أن الضوء دوماً هناك، إنما موقعنا هو الذي يتغير، الظل والظلمة هما نتاج لابتعادنا عن مصدر الضوء..

الضوء الحقيقي، لا يأفل..

إنما نحن الذين نأفل عنه..

* * *

وفي ذلك الكتاب الموقوت، نستطيع أن نتوحد مع الكون بأسره، لكنه توحد يتم طوعاً وبإرادتنا، كل الأجرام والكواكب والنجوم تنتظم في حركتها ومواعيد حركتها دون أي قدرة على تغييرها، مثل مواعيد مسبقة لقطارات يتم تسييرها آلياً ودونما أي إمكانية للتغيير..

أما نحن، فننتظم، عبر الصلاة الموقوتة، في أوقات مرتبطة بحركة الكون، عبر تعاقب الضوء والظلمة، بملء إرادتنا.. بوعينا المسبق.. نسجل حضورنا اليومي - خمس مرات - في مهرجان التوحد مع الكون والخليقة..

الكورتيزون والأدرينالين في أجسامنا - وسواهما - يتأثران فعلاً بتعاقب الضوء والظلمة، وكذلك نشاط أدمغتنا.. لكن تلك الساعة البيولوجية تعمل بشكل لا إرادي، تتساوى فيها مع الزواحف وبقية الحيوانات.. أما الصلاة الموقوتة فهي تميز النوع الإنساني.. إنه وحده يستطيع أن يتحد بملكوت السماوات والأرض بملء إرادته..

* * *

الآن، أفهم حقاً، لِمَ الصلاة على وقتها، هي أفضل الأعمال..



الفصل الثالث

الوضوء: ومن الماء تتدفق الحياة..

ولأن الصلاة هي دعوة إلى الحياة، وإلى إعادة الحياة، إلى بعثها، فإن ذلك لا بد أن يبدأ بالماء، الماء الذي هو أكثر من جزيئتي هيدروجين وجزيئة أوكسجين..

الماء هو ذلك طبعاً، وهو وسيلة "تنظيف مباشرة"، لكنه أيضاً: الماء - رمز الحياة.. بكل ما يحتوي ذلك الرمز من عمق مرتبط بأقدم التجارب الإنسانية وأعرقها.. الماء الذي خلقنا منه، والذي أقيمت عليه أولى الحضارات الإنسانية، والذي يحيي الأرض بعد موتها، يمكنه أيضاً أن يساهم في إحيائنا من جديد، عندما نقوم إلى الصلاة، عندما نفهم من الصلاة أنها يجب أن تجعلنا نقوم، فإن الوضوء هنا سيكون أكثر من مجرد النظافة بمعناها الحرفي، أكثر من كونه تنشيطاً للدورة الدموية، بل سيأخذ معاني أعمق ولذلك فهي أكثر خفاء.. إنه هنا الماء الذي ينزل على أرض لهفى للإنتاج، هي أنت، أرض ملت بوارَها وقحطَها، وصارت تتشوق للماء كي تكسر حاجز الموت..

قبل قليل كان النداء: حيّ على الصلاة، حيّ على الفلاح، وها هو ذا الماء يأتي ليلبي، ليشارك - كما هو دوماً - في عملية صنع الحياة.. ها هو ذا الماء يأتي ليشارك في الفلاح.. يتفاعل مع أرض هي أنت، يفلحها ليشارك في عملية الفلاح.. التي لا بد أن تؤدي إلى الإثمار.. والحصاد.. لاحقاً..

* * *

ها هو ذا الماء يجلو عنك الصدأ، يجعلك مستعداً للمهمة التي أنت مقبل عليها، لا، ليس ملاقاته عز وجل فحسب، بل للمهمة التي وضعك عز وجل من أجلها هنا على هذه الأرض..

مهمة تغيير العالم..

* * *

وفي كل "تدريب" بدني تقوم فيه، فإنك تغتسل بعد أن تنهي تدريبك..

أما الآن، فأنت في دورة تدريبية خاصة جداً، والماء تحتاج إليه قبل أن تدخلها، وليس "بعد"، ربما لأنك تحتاج فيها إلى أكثر من بدنك، ربما لأن كل مسامة من مساماتك يجب أن تشارك في الأمر.. ربما لأن الماء - بصفته أساس كل حياة - سيقدح شرارة الحياة في أعماقك.. سيهز تلك النفخة الإلهية الملقبة بالروح، التي لا تزال تحملها معك حيث كنت..

وجوهكم، أيديكم، رؤوسكم، أرجلكم.. هكذا تتحدد الأعضاء المشمولة بالوضوء.. ولكل عضو حكايته ورمزه ومعناه..

فالوجه ليس مجرد وجه، إنه الوجهة بأسرها، إنه ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [الأنعام: ٧٩/٦] - إنه الوجه الإبراهيمي الذي بحث عن الحقيقة، ورفض كل المكرسات، واستقر متوجهاً نحو ذاك الخالق المتعالي عن كل جهة..

والرأس ليس صندوقاً نحمله فوق أكتافنا؛ إنه أيضاً، الصندوق الذي نحمل فيه أفكارنا وتفاعلاتنا وتراثنا، وأحلامنا وآمالنا وطموحاتنا..

والأيدي هي بالتأكيد أعضاء ستحتاج إليها في مهمتك، مهمة بناء العالم.. ستشمر عن يديك إلى مرفقيك، وتساهم فيما جئت أصلاً من أجله..

والأرجل ستخوض أيضاً في المهمة، ستحفر في الأساس، ستكون قد هبطت لتشارك في رفع القواعد..

وضوء للحضارة الأولى

أب وابنه، شمرا عن سواعدهما، غاصت أيديهما وأرجلهما في الطين، الشمس ساطعة والحر لاهب، وهما وحيدان، دون مساعدة من أحد، العرق يتصبب من جبينهما ويختلط بالطين الذي فيه يبنيان..

ماذا يبنيان؟ إنهما يبنيان بيتاً، لكنه ليس بيتاً خاصاً

لهما، بل هو بيت بخصوصية كبيرة، إنه بيت للناس أجمعين.. لكنه بيت الله.. الذي بمكة..

إنه إبراهيم، وابنه.. وتلك الأيدي والأرجل الممتزجة بالطين وعرق البناء كانت تضع أسس تلك الحضارة الأخرى..

لعلهم التفتوا يومها إلى ذلك البئر، واغتسلوا فيه من عرق البناء وطين الفلاح.. وامتزج ذلك كله مع الماء في البئر..

ولعل ذلك كان السبب في القداسة التي صارت لزمزم..

لأن فيه توضأ إبراهيم وابنه، عندما كانا يضعان أسس وقواعد تلك الحضارة الأخرى..

حضارة لا إله إلا الله..



الفصل الرابع

القبلة: العودة إلى البيت..!

.. لو قيل لك أن تختار مكاناً واحداً فقط، يكون هو المكان الذي تروم الذهاب له، وكان سؤالك بهذا بطريقة غير مباشرة، دون إيحاء بجواب معين، فلربما فكرت في منتجع ما، على بحيرة هادئة وغابات شديدة الخضرة، ربما لم تزر المكان أصلاً، لكن راودتك دوماً أحلام زيارته.. فما بالك أن تسكن فيه؟..

* * *

هناك مكان واحد فعلاً، هو الذي "يجب" أن نتجه إليه عندما نقف على مفترقات الطرق..

ونحن نفعل ذلك فعلاً، دون أن نقصد هذا كله.. نفعله بميكانيكية دون أن نسكنه في معناه والمقصد منه.. نقف على سجادة الصلاة.. نحو موضع معين، هو موضع "القبلة" دون أن نفكر أنها المرفأ، البر، الطريق الذي يشق كل تفرعات الدهاليز، ويأخذك إلى حيث يجب أن تذهب..

* * *

القِبلة: هي ناحية الصلاة..

وليس غريباً أبداً، أن يكون الاتجاه عند الصلاة.. إلى هناك، إلى حيث الكعبة..

فهناك، بذر إبراهيم بذرة ذلك المجتمع الذي أقيم على إقامة الصلاة..

وهناك، أقيمت الصلاة للمرة الأولى..

وهناك، قام إبراهيم ينادي الناس إلى الصلاة، للمرة الأولى..

ليس غريباً إذن، أن نتجه إلى هناك..

الغريب جداً هو ألا نفهم من هذا المكان غير خطي الطول والعرض اللذين يحددانه.. ونترك ما هو أهم من الطول والعرض.. نترك "العمق" المتضمن فيه.. و "الارتفاع" الذي يمكن أن نطاله، فيما لو فهمنا أكثر من مجرد الطول والعرض..

القبلة: اتجاه الحضارة البديلة

بين خطي الطول والعرض، هناك حكاية تختصر سعي البشرية إلى البحث عن خيار آخر، يعوض إحباطاتها وفشلها المتكرر في كل حضاراتها..

بين خطي الطول والعرض، هناك عمق يضم حكاية خطوط طول وعرض أخرى، فيها مراكز حضارية مهمة، وعمران عظيم، وجنات وعيون، ولكن كل ذلك لم يسد الحاجة إلى "شيء ما" في نفس الإنسان في داخل تلك المراكز الحضارية..

نقطة الطول والعرض التي تحدد "اتجاه الصلاة"، تشير ضمناً إلى نقاط أخرى، جال فيها إبراهيم، واستكشف قوتها وضعفها، بالطول وبالعرض، واكتشف فيها تطاول البنيان، وتمزق الإنسان..

وقاده ذلك التجوال والاكتشاف والرفض، إلى أن يحط رحاله في نقطة أخرى، يلتقي فيها الطول والعرض، جغرافياً، ولكن يلتقي فيها ما هو أهم: تلتقي فيها متطلبات الانسان وحاجاته، مع الأسس التي يقام عليها هذا المجتمع؛ مجتمع الطول والعرض، والعمق والارتقاع..

مكان في الغد

ذلك "المكان" الذي نتجه إليه عند الصلاة، هو أكثر من مجرد "مكان"، إنه يضم كل "ما كان"، منذ أن بدأ إبراهيم رحلته تلك، ليرفع قواعد حضارة لا إله إلا الله، إلى أن أرسيت تلك الحضارة وشمخت على يدي خاتم الرسل عليه أفضل الصلاة والسلام..

وذلك المكان، ما دمنا نتجه إليه، يحتوي أيضاً على كل ما سيكون.. على كل ما يمكن أن يكون، عندما نحيي تلك المعاني، عندما نشعر بها، ونحن نقف بذلك الاتجاه..

إنه المكان الذي هو أكثر من مجرد مكان.. بل هو مكان محمل بالرموز والمعاني، كامن بالإمكانات المتاحة؛ التي كل فرد منا، ما دام يقف بذلك الاتجاه، هو جزء منها..

و "المكان"، لا يشبه مكاناً راودتك أحلامك عليه.. لا

جبال خضراء هناك، ولا بحيرة رائقة.. على العكس، هنا جبال جرداء، وواد غير ذي زرع.. لكن هذا ليس مجرد تفصيل غير مهم، بل هو في غاية الأهمية - إنك تتجه إلى مكان، لم يكن فيه، عملياً ونظرياً، أي شيء مما يمكن أن يجمع الناس عليه، وهم يشكلون تجمعاتهم ويبغون مراكز عمرانهم وحضاراتهم، ليس فيه حوض من أحواض الأنهار أو مرفأ بحري أو غاية كتلك التي قامت عليها الحضارات آنذاك..

كان ذلك مقصوداً حتماً، إنها الحضارة التي تبدأ من نقطة خالصة لما ترتكز عليه.. الحضارة التي حجرها الأساس ليس مورداً اقتصادياً، ليس تجمعاً من أجل ذلك المورد، بل حجرها الأساس "حجر أسود" لا يشبه ما سواه من أحجار بنيت عليها الحضارات الأخرى، لأنه "حجر أسود" يرمز لقيم السماء، وقد وضع ليكون ركيزة لحضارة أرضية متوازنة..

نفي كل ما لا ينتمي لقيم السماء لا يعني عداءً وإقصاءً للموارد الاقتصادية أو لمرتكزات الحضارات الأخرى بالذات.. فذلك يعني أن تلك الحضارة لن تتقدم صوب الواقع وملكوته، لكنه رفض لأن تكون تلك هي المرتكز، وهي الحجر الذي تقام عليه الحضارة؛ إنه إسكان لهذه الموارد في موضع الوسائل لا الغايات، وفي موضع المعايش لا القيم..

وهذا كله متضمن في معاني اتجاهنا إلى هناك..

مع أننا، ربما لا ننتبه لكل هذا..

ربما ؟..

* * *

ولم يكن ذلك "المكان" خياراً عبثياً، توصل إليه إبراهيم، بعدما يئس من الحضارات الأخرى وإمكانية إصلاحها.. لم يكن مجرد مكان آخر.. استقر فيه بعد أن تقطعت فيه السبل.. لقد كان مكاناً بوأه الله عز وجل لإبراهيم ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى﴾ [الحج: ٢٢/٢٦]..

مكان البيت، جعل الله إبراهيم (يتخذه) - قبل أن يكون البيت.. كان مكاناً للبيت، قبل أن يكون البيت وترتفع قواعده وأسسه..

لقد حدد الله عز وجل مكان البيت..

وبحث عنه إبراهيم.. ووجده..

الحجر الأسود: حجر أساس للحضارة البديلة

كل الحضارات الأخرى، (والأمر لا يزال ساري المفعول)، كانت لا بد قائمة على مكرسات وماديات لا بد أن تؤدي إلى الظلم؛ سواء كان هذا الظلم تظالماً داخلياً داخل بنية كل حضارة، حيث تظلم طبقة أخرى، أم كان ظلماً خارجياً من أمة إلى أمة أخرى، أم كان مزيجاً مركباً من الظلمين..

ما دام الحجر الأساس الذي تقوم عليه الحضارة حجراً

آخر غير الحجر الأسود القادم من قيم السماء، فإن الظلم سينتج عنه ولا بد، مهما كانت الشعارات المرفوعة إنسانية وتتغنى بالحرية للشعوب.. ولأن قانون الفعل ورد الفعل ساري المفعول أيضاً، فإن ذلك الظلم الذي قد يختلط بالدم لا بد أن ينتج رد فعل مختلطاً بالدم..

وهكذا، فإن كل الحضارات الأخرى، عبر التاريخ والحاضر وأيضاً عبر المستقبل، سيكون "الدم" ميزة ملازمة لها، كنتيجة لقانون لا يمكن الفكاك منه.. كمتتالية سببية لا يمكن النفاذ منها: عندما يكون التحكيم لقيم أخرى غير قيم السماء، يكون الظلم أو التظالم، ويسفك الدم كنتيجة تصدق قول الملائكة الذين اعترضوا على جعل الإنسان خليفة في الأرض..

والدم فيه حرام...

المكان الرمز للحضارة الأخرى، الحضارة البديلة، ينفي "الدم" كله..

فالدم فيه حرام، ولقد ارتبط ذلك منذ البداية قديماً حتى صار اسمه البيت الحرام..

إنه حرام، فالدم فيه "حرام" ليس لأنه ممنوع في أرجائه فقط، وليس لأنه نتاج لدعوة "لا عنف" تجافي الواقع ومعطياته، بل هو "البيت الحرام"، لأن أسسه قامت على تجفيف منابع الظلم والتظالم؛ فحرمة الدم فيه هي النتيجة النهائية المبنية على القواعد والأسس التي تقوم

عليها حضارة لا إله إلا الله، وليست قراراً (سلبياً) يتخذ لأي سبب.. بل إن الوصول إلى تلك الحضارة، حضارة لا إله إلا الله حيث إن الدم حرام لأن منابع الظلم قد جففت، قد يتطلب أن يهرق الدم، أحياناً يكون دم الظالم، وأحياناً يكون دم من يعبد الطريق لتلك الحضارة..

لكن الهدف النهائي، حيث المرفأ، حيث البر، هو ذلك المكان الذي بوأه الله لإبراهيم، حيث الدم حرام.. حيث يأمن الإنسان..

* * *

وكان ذلك هو السبب، في أن ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ [البقرة: ٢/١٢٥].

فالمثابة هي المكان الذي يثاب إليه، المرجع، والبيت، ضمن هذا المفهوم الواسع، مفهوم الحضارة الأخرى، هو فعلاً المرجع، الذي يرجع إليه دوماً لتقييم الحضارات والتجارب الأخرى، وهو الذي يرجع إليه، بعد أن تثبت تلك الحضارات إفلاس شعاراتها، ويظهر ظلمها، الملطخ بالدم..

والأمن: هو ذلك الأمن الناتج عن تجفيف منابع الظلم، عن إلغاء أسباب الجريمة والتظالم، ليس الأمن الناتج عن زيادة عدد الحراس، وتشديد العقوبات، وتحديث أجهزة الانذار، بل هو الأمن الناتج عن التوازن، عن العدل، عن سد الحاجات الأساسية..

الحنين إلى بيتك الأول..

ولأن الأصل في هذا العالم هو العدل والتوازن، فإن هذا البيت - الذي هو انعكاس لهذا العالم المتوازن والمبني على التوازن - سيبدو قديماً وموغلاً في القدم.. كما لو أنه أول بيت سكنه إنسان..

ليس "كما لو"؛ بل إنه فعلاً أول بيت..

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا﴾ [آل عمران: ٣/ ٩٦]..

فلنتنبه، إنه وضع للناس، مع أنه بيته هو، عز وجل..

ليس بحاجة إلى بيت، هو، جل وعلا.. لكن بيته وضع للناس، من أجل أن يكون مرجعاً لهم.. وأمناً..

ولأنه "أول بيت"، فإن انشدادنا نحوه، يشبه انشدادنا نحو بيتنا الأول، نحو البيت الذي شهد طفولتنا الأولى، في ذكريات عائمة بين الوعي والخيال.. بكل ما يعني ذلك من حنين نحو ذلك البيت.. لعل ذلك هو المقصود بالبيت العتيق..

* * *

كل ذلك، متضمن، في اتجاهنا في الصلاة.. نحو هذه الجهة بالذات..

إننا نصلي لله، الذي لا يحده مكان ولا يمكن أن يفهم من خلال الجهات، ولكن تعبدنا له عز وجل لا بد أن يمر بهذا الاتجاه، بهذا الطريق، بطريق تكوين تلك الحضارة الأخرى..

كما لو أن صلاتنا هي تعبيد لذلك الطريق..

(كما لو)؟، بلى، بل إنها فعلاً تعبيد لذلك الطريق..

إنها فعلاً، من أجل تغيير العالم..

لو أننا فهمناها، كما فهمها أشخاص، مثل عمر بن الخطاب، مثلاً..

التكامل بين أبي الأنبياء وسيد الخلق

وفي هذا الاتجاه، الذي نتجه نحوه في أثناء الصلاة، تلتقي وتلتحم التجربتان الرائدتان، الإبراهيمية والمحمدية، بطريقة أهم من التقاء خط الطول مع خط العرض، والعمق مع الارتفاع..

فكما دارَ إبراهيم وبحث إلى أن وصل إلى ذلك المكان، فكذلك تقلب وجهه الشريف، عليه الصلاة والسلام، وهو يبحث عن القبلة..

تلتقي التجربتان، وتلتحمان، وتتكاملان،كما دوماً، عند هذه النقطة: ليس نقطة الجغرافية، بل نقطة التقلب ثم الوصول، نقطة البحث، نقطة التبوُّء، ونقطة التولي..

وبين الإقبال، والقبول..

ومن خلال ذلك كله، ومن أجل ذلك كله، كل ما يحتويه ويتضمنه "المكان" من معاني التوازن والعدل، فإن شعور "الرضا" سينبع من أعماق النفس.."قبلة ترضاها"

بعد القبول، يأتي الرضا..

القبلة بين النموذجين

وبين التبوُّؤ الإبراهيمي للبيت الحرام، وتولية وجه محمد عليه الصلاة والسلام صوب المسجد الحرام، فرق ومعنى لهذا الفرق..

فالتجربة الإبراهيمية اتخذت البيت الحرام "مسكناً" وتماهت معه، أما النسخة المحمدية، ولأنها الخاتمة، فهي تولي وجهها شطر الكعبة، ولا تسكن فيها، بعبارة أخرى، إن التجربة الإبراهيمية تماهت مع الكعبة في مركز الدائرة، أما التجربة المحمدية فقد رسمت دوائرَ أوسع حول مركز الدائرة، منذ لحظتها الأولى، لأن قدرها أن تنتشر في الأرض، دون أن تنسى أن لها وجهة محددة، لها ثابت يحدد موقعها، ومكانتها بقدر ما تكون ممتثلة لهذا الثابت.

نقطة في وسط دائرة، هي البيت الحرام.. أما حدود الدائرة، فهي غير محسومة.. تمد بقيام الحضارة، حضارة لا إله إلا الله، وتجزر بانحسارها، وتضمحل، لتبقى النقطة وحدها، عندما يكون الجيل أقل من أن يتحمل مسؤولية تلك الدائرة.. مسؤولية حضارة السجود.

لماذا "ثاني القبلتين"؟

لكن السؤال هنا، والآن كما آنذاك: لماذا أصلاً كانت هناك "قبلة أولى"، لماذا لم يحسم الأمر منذ البدء بالاتجاه إلى البيت الحرام..؟ لماذا كانت هناك بضع سنين من الاتجاه إلى المسجد الأقصى؟.. وهو الأمر الذي

فتح باب الغمز واللمز ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمۡ عَن قِبۡلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيۡهَاۚ﴾ [البقرة: ٢/١٤٢]

فبالنسبة إلى السفهاء الذين لا يستخدمون عقولهم أو لا يملكونها أصلاً، وهم ظاهرة تاريخية موجودة في كل العصور ولا يختصون بعصر النبي عليه الصلاة والسلام - هؤلاء يتصورون أن مجرد كونهم (كانوا عليها) سبب كافٍ للاستمرار في ذلك، لا تصور عندهم لإمكانية وجود شيء أفضل.. فكل شيء "مكرس" وكل أمر "مستقر" يحمل في نظرهم القاصر سبب استمراره واستقراره.

لذلك كان تحويل القبلة - وجعلها في المقام الأول نحو المسجد الأقصى - نسفاً لنمط الاستقرار في التفكير.. الذي لا ينتج غير "الجمود على الموجود"، ويطلق هذا النسف نمطاً بديلاً للتفكير يكون مستعداً لتحمل "أقصى البدائل" ما دامت قد أثبتت الأصح.. وأنها الأكمل.. وأنها الأكثر صلاحاً..

* * *

فهل يعني هذا، أن علينا أن نبدل "القبلة" - بين الحين والآخر - لكي ننسف نمط التفكير الذي ينتج الجمود على الموجود؟..

بالطبع لا، فمجرد الوعي بحكمة هذا الانتقال، وبأهميته على صعيد تكوين نمط التفكير الجديد، فإن ذلك يكون بديلاً عن الانتقال من قبلة إلى أخرى..

أما إن فُقِد ذلك الوعي، فلا فائدة من كل ذلك، سيكون انتقال القبلة مجرد تجربة تاريخية حصلت وانتهت ولا تفاعل جدلي لها مع حاضرنا المعاصر.. بل مع أي تجربة أخرى خارج النطاق التاريخي لحدوثها..

* * *

وتحويل القبلة، يتضمن أيضاً "فك ارتباط" مزدوجاً، وليس مفرداً.. فالاتجاه إلى المسجد الأقصى، كان يشمل فك ارتباط مع "البيت الحرام" حيث كان عرب الجاهلية يمجدون البيت الحرام ويعظمونه ويتجهون في صلاتهم إليه، بكل الأوثان التي حشدوها فيه..

لم يكن من الممكن فهم المعنى الحقيقي للبيت الحرام، للمسجد الحرام، إلا بعد "تجريده" من كل ما أحيط به من مفاهيم جاهلية وثنية، ولم يكن ممكناً إنجاز ذلك إلا عبر إحداث "قطيعة" مع المكان كله.. باتجاه المسجد الأقصى، الذي كان أقرب إلى المفهوم التوحيدي، إذا قارناه بالانحرافات الوثنية التي كانت تمج بها الكعبة..

* * *

من جهة أخرى، كان الارتباط بالمسجد الأقصى، يمثل انسلاخاً من المنظومة الجاهلية نحو منظومة كتابية كان العرب يرفضونها جملةً وتفصيلاً.. وكان الانضمام لها يلغي بقية الروابط العشائرية والقبلية التي يمكن أن تمارس تأثيراً على الفرد الجديد، لكن القبلة التي يتجه لها في صلاته تلغي ذلك، بل تنسفه نسفاً، وتجعله يرتبط بمفهوم

آخر من مفهومي القبيلة والعشيرة، مفهوم الأمة، الإيمان، العقيدة..

وكلها أمور (مجردة) ما كان للفرد الذي نشأ في قفص العشيرة أن يفهمها..

ليس البر أن تقزموا المعاني

لكن في سورة البقرة نفسها، التي نقلت لنا حكاية القبلة وتحديدها، هناك توضيح مهم جداً، لمفهوم القبلة والمقصود منها ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ [البقرة: ٢/١٧٧].

الآن أفهم، إن قصر القبلة على جانبها الجغرافي هو الخطأ، هو الذي تنفيه وتنهى عنه الآية..

فالقبلة، ليست مشرقاً ومغرباً، إنها بالتأكيد ليست مجرد جهة جغرافية، وقصرها على ذلك، يشبه اختصار التجربة الإبراهيمية بتتبع المسار الجغرافي لرحلة إبراهيم معزولة عن المغزى في تنقله بين مركز الحضارات، ورفضه لأسسها ونتائجها، ووصوله إلى تلك النقطة التي يرسي فيها قواعد البيت المختلف، نواة الحضارة الأخرى.. إنها -بالإضافة إلى ذلك - القيم المرتبطة بتلك الرحلة، قيم الإيمان بكل أبعادها، النفسية والاجتماعية والحضارية..

﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ [البقرة: ٢/ ١٧٧]..أي تركيز على القبلة، دون الإحاطة والتعمق في

منظومة المفاهيم التي تعنيها، سيكون محض تقزيم جغرافي، لمعان عملاقة، كانت الجغرافية محض وعاء لها..

هل يمكن حقاً الإفادة من وعاء الدواء، إذا كان الدواء قد نفد؟..

هذا ما يحدث، عندما نفرغ المعنى من قوالب الأركان..

القبلة من أجل أن تنهض أنت

كل ذلك من أجل ماذا؟..

ما الذي يهدف له في النهاية؟.. ما المقصد منه..؟

إننا نصلي بهذا الاتجاه، وهو اتجاه الرحلة الإبراهيمية التي جعلت من الكعبة - البيت الحرام، أساساً وقاعدةً لبناء حضارة مختلفة..

لكن، وراء ذلك كله، وراء اختيار "المكان" - "الاتجاه" قبلة لصلاتنا، هناك ربما هدف، يوضح هذا كله أكثر.. ويعمقه..

وراء ذلك الرمز، الذي يضم كل تلك المعاني، هناك هدف، هو المقصد الأساسي من الأمر كله..

مقصد من القبلة؟.. (جديدة هذه.. سيقولون).

نعم، مقصد من القبلة..

ما هو ؟..

أن ننهض.. أن نقوم.. أن ننفض غبار السبات عن عقولنا ورؤوسنا وأفكارنا.. أن نتحرك صوب نهضةٍ ما.. أن نقوم

بفعل النهوض.. أن نستلهم من ذلك "المكان" كل المعاني من أجل أن نساهم في بناء حضارة على القواعد والأسس ذاتها التي رفع فيها البيت هناك..

أن نقوم مما نحن فيه.. نحو ما نستحق أن نكون..

(حسناً، كلام جميل، لكن من أين جئت بهذا؟..)

من القرآن.. ليس من مصدر آخر.. بل ليس هناك من مصدر آخر يمكنه أن يوضح لنا ذلك أو يشرح لنا ما يجب أن يكون..

من القرآن..

أين؟ ..﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٥/٩٧].

من أجل هذا، من أجل أن يقوم الناس، جعل الله الكعبة، جعل البيت الحرام.. من أجل أن يقوم الناس..

يقومون مم؟.. وإلى أين؟..

يقومون من كل ما هو عكس القيام.. يقومون من الركود.. من السبات.. من الحضيض.. من إمكانية النزول إلى القاع..

إلى أين؟.. إلى النهوض.. إلى بناء تلك الحضارة، التي خلقنا أصلاً من أجل أن نضع ولو حجراً واحداً في بنيانها.

القيام هو النهوض، هو النهضة، وقد جعل الله البيت الحرام (قياماً) للناس، أي سبباً في نهوضهم، في جعلهم

يعون أنهم جزء من مسيرة تاريخية لم تبدأ منذ ولادتهم، ولن تنتهيَ عند موتهم، والمهم في الفترة ما بين الولادة والممات هو الإضافة التي ننجزها لتلك المسيرة..

البيت المعمور.. والسقف المرفوع

وينسجم ذلك، في إعجاز قرآني غير مستغرب، مع تسمية البيت بـ "البيت المعمور"..

فالبيت هنا معمور دوماً.. كما لو أنه في عملية إعمار وإعادة إعمار مستمرة.. أي بيت هذا الذي يكون هكذا.. إنه البيت الرمز لهذه الحضارة.. حضارة الإعمار الدائم..

ومن الذي يعمر البيت؟.. إنهم كما توضح آية أخرى ﴿إِنَّمَا يَعۡمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ [التوبة: ٩/١٨].

فالإعمار هو أولاً الامتلاء بالقيم واتخاذها منطلقاً للبناء.. لا أن يكون بناء مجرداً عن القيم..مجرد تطاول في البنيان..

ومن يفعل ذلك؟.. من يعمر البيت غير أصحاب ذلك السقف المرتفع في القيم والمبادئ والإيمان..

أصحاب "السقف المرفوع"...

اتجاهك للبيت، عند الصلاة، يفترض أن يحتوي على كل ذلك..

معنى البيت.. ومعنى السقف المرفوع.. حيث السماء

وحدها هي الحد لطموحك وإيمانك بذاتك... بقدرتك على أن تكون ما خلقت من أجله..

عدم الالتفات إلى معاني القبلة، يشبه تفريغها إلى محض "مشرق" أو "مغرب" وقتل فاعليتها الأساسية - وهدفها الأساسي منها: أن تكون "قياماً"..

كل ذلك، يجب أن يمر بسرعة البرق، وبفاعلية الكهرباء، وهما يمران وينيران ويغيران، في بالنا ونحن نتجه إلى القبلة.

شيء من هذا، عندما يمر، كل يوم، خمس مرات، فإنه يحدث تأثيراً ولو على المدى البعيد، ولو بالأثر المتراكم..

ويعود (للقبلة) المقصد الأصلي الذي من أجله نتجه إليها..

من أجل أن نقوم..

بعبارة أخرى: من أجل النهضة!..



الفصل الخامس

النية: الركن الذي لا يرى بالعين المجردة

.. يختلف هذا الركن عن سائر الأركان، فإذا كنا نستطيع أن نتحدث عن القبلة، باعتبارها اتجاهاً (على ما في ذلك من تقزيم)، وعن الركوع أو السجود باعتبارهما هيئة أو وضعاً حركياً نتخذه (.. ويحتوي أيضاً على معان عميقة..) إلا أن هذا الركن، لا يتقمص وضعاً جسمانياً، ولا يمكن التعبير عنه بوصفه المباشر..

لكن هذا لن يقلل من أهميته..

على العكس من ذلك، قد يزيدها..

* * *

فالروح أيضاً، لا يمكن أن (تعرَّف) تعريفاً واضحاً، يصفها بشكل مباشر، أو يضعها في قالب جسماني معين..

فهل ذلك يقلل من أهميتها؟..

إنها - رغم عدم خضوعها لتصنيف التعريفات والتوصيفات - الفرق والفيصل بين أن تكون حياً، وأن تكون مجرد جثة هامدة..

بعض الأشياء التي لا ترى، والتي لا تخضع لقالب وشكل مادي، هي الأخطر والأكثر أهمية..

ليس الروح فقط.. مهما كان تعريفها، هذا إن كان لها تعريف على الإطلاق، فهي ﴿مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [الإسراء: ١٧/٨٥].. ولكن هناك أيضاً، مما لا يرى ولكن تكون له تأثيرات مهمة، سلباً وإيجاباً.. الكهرباء مثلاً، لا يمكن رؤية إلكتروناتها وهي تسري في السلك الكهربائي لكنها تضيء وتبث الحركة وتقتل أيضاً.

كذلك بعض أنواع الأشعة: تكون غير مرئية.. لكنها تقتل..

* * *

وطبعاً، الأمثال تضرب ولا يقاس عليها.. فالركن الذي نتحدث عنه لا يقتل، لكن اختفاءه - أو غيابه - سيهد الصلاة.. ويهد أي عبادة تخلو منه.. سيقتلها.. ويجعلها مثل هيكل ضخم لكن أساساته من رمل هش..

النية: روح العبادة

عن "النية" طبعاً، نتحدث.. فهي التي تحدد صلاحية العمل، وحيويته، أو موته وانتهاء تاريخ صلاحيته..

النية؛ الركن الأساسي الذي لا يرى بالعين المجردة، ولكن إذا غاب غاب العمل كله.. ولم يبق له وجود حقيقي..

* * *

توصف النية عادة أن مكانها في القلب.. وتحديد الموقع هذا لن يغير كثيراً من الأمر؛ فالقلب نفسه لا يخضع لتعريف مادي واضح، وهو بالتأكيد ليس القلب المضخة العضلية؛ بل ربما يكون القلب بمعنى جوهر المرء، أياً كان موضع هذا الجوهر..

والنية فعلاً مكانها في هذا الجوهر، إنها في أعماق الأعماق.. قد لا تظهر بشكل مادي أو بشكل هيئة؛ لكنها تتحكم في كل الأركان والهيئات الأخرى..

* * *

والخلاف التقليدي، بين المذاهب الفقهية، حول الحاجة إلى التلفظ بالنية "نويت أن أصلي الظهر أربع ركعات.. إلخ" أو عدم الحاجة إلى ذلك، بل واعتبار الأمر من قبيل الابتداع المنهي عنه عند البعض، هذا الخلاف يعكس صعوبة تحديد النية؛ الأمر الذي جعل البعض يجسدها لغوياً بأحرف وأصوات، لكي يصبح لها "ماهية".

والحقيقة أن الأمر لن يكون باللفظ المجرد. وتحويله إلى أحرف وأصوات، لا يعدو أن يكون محاولة محكومة بالفشل لصيد الحيتان بسنارة السمك.. أو للوصول إلى القمر، عبر طائرة ورقية..

لماذا التركيز على النية؟

لكن السؤال هنا، الذي قد يتبادر إلى الذهن: هو لم التركيز على "النية" أصلاً؟.. لماذا تطلب النية أصلاً

لشخص وقف ليصلي؟.. ما الذي يمكن أن يكون في (نيته) غير الصلاة لله عز وجل؟..

الجواب عن هذا السؤال له مستويان: المستوى الأول، وهو الأقرب إلى ممارستنا اليومية للصلاة، حيث إن الصلاة بتكرارها اليومي، وحركاتها التي تعاد خمس مرات في اليوم، يمكن جداً أن تتحول إلى (عادة) رتيبة، تؤدى دونما إحساس بها، بآلية، كما تؤدي أي عادة، بشكل آلي أوتوماتيكي، كروبوت آلي في مصنع يقوم بأداء ما برمج على أدائه دون أي شعور مصاحب للأداء..

(النية) هي من أجل ذلك.. على الأقل مبدئياً..

النية، هي السور الافتراضي الذي يمكنه، (لو أحسنا استخدامه) أن يحمينا من انزلاق عبادتنا إلى أن تصبح عادة..

النية، تعطي شحنة من المعاني، تبث الحياة، (تخلصنا)، و (تخلص) عبادتنا من مصير العادة..

وهذا، ينقلنا إلى المستوى الثاني من الجواب عن السؤال.. إلى الإخلاص..

* * *

فلنتنبه هنا إلى أن كلمة النية لم ترد أبداً في القرآن الكريم، وإن ورد معناها طبعاً، ولا إشكال في هذا، فلا مشاحة في الاصطلاح، ولكن المصطلح ترسخ وتأصل عبر الحديث المعروف الذي رواه عمر بن الخطاب عن الرسول

عليه أفضل الصلاة والسلام: «إنما الأعمال بالنيات..» الحديث.

أما لفظة الإخلاص ومشتقاتها فقد وردت في مواضع كثيرة من القرآن الكريم..

بين التقابل بين اللفظتين، والمعنى المتولد من كل منهما.. سندلف إلى موضع النية، في الأعماق المجهولة التي نادراً ما نرحل إليها.. وإن كانت موجودة فينا..

النية: حالة التحول الدائمة، باتجاه ثابت

النية، في لسان العرب، من القصد والعزم في السفر، أي إنه المكان الذي نقصد السفر إليه - ننوي السفر إليه - وغالباً ما يكون بعيداً، ولذلك فالنوى هو (البعد)..

إنه القصد والمقصد إذن.. وهذا واضح وقريب من فهمنا لمصطلح (النية)؛ لكن فلنلاحظ هنا أنه مقصد الانتقال من حالة إلى أخرى، مقصد السفر، هل يذكر هذا بالحديث الذي حفظته العبقرية العمرية، حديث «إنما الأعمال بالنيات» الذي اختار الهجرة كمثال توضيحي للنية «فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه..»..

إنه سفر إذن.. كما يشير اللفظ أصلاً؟..

لا، ليس بالضبط.. إنه ليس سفراً عادياً.. نرحل ونسافر كثيراً.. نقصد جهات متعددة.. وقد لا نقصد غير التجوال والترحال.. وقد نضمر العودة..

لكن المثال هنا مختلف.. إنه «الهجرة».. والهجرة ليست سفراً بالضبط؛ إنها سفر بلا نية للرجوع، إنها سفر مع نية القطيعة.. بالضبط؛ إنها أن ترحل بتذكرة ذهاب فقط.. وقد حرقت خلفك كل الجسور والسفن.. ولا شيء في بالك غير ما ترحل إليه..

إنه الارتحال، وقد بعت كل ما تملك، ليس من "خط للرجوع"، ليس من إمكانية للرجوع..

إنها الهجرة ..دونما التفات إلى الوراء..

* * *

هل كان الرسول عليه الصلاة والسلام، يقصد "بالهجرة" هجرته وأصحابه من مكة إلى المدينة فقط.. كمثال على العمل عموماً، أم أنه قصد أن كل "عمل" نعمله، هو هجرة بطريقة ما، باعتبار القطيعة مع كل ما سوى ما نقصده، على أن ما نقصده يحتاج إلى رحيل مستمر باتجاه واحد، مع إحداث قطيعة مع الاتجاهات الأخرى..

إنها نظرة جديدة للعمل، على أساس أنه خطوة في رحيل مستمر، حجر في بناء جديد، العمل الذي يضمر "دوماً" هدفاً بعيداً، تهاجر إليه باستمرار..

* * *

ومن الفعل نفسه، الفعل "نوى"؛ الذي يحتوي على جذور المفردة التي نتعامل معها، تبرز لنا مفردة توضح أكثر، ذلك الذي لا يُرى، ولكنه قد يكون سبباً للحياة كما يكون اختفاؤه سبباً للموت..

النية: نواة الإثمار

النواة، مشتقة أيضاً من نفس الفعل "نوى" الذي اشتقت منه "النية"؛ إنهما إذن.. "أبناء عم" لغوياً.. إن جاز التعبير..

لكن هذا التشابه في اللفظ ليس مجرد "تشابه بالأسماء"، بل هو تشابه يشي بوجود قرابة فعلية.. في المعنى، كما في المبنى.. النواة، والنية..

فلنتأمل في النواة، ربما نجد ما لا نعرفه عن النية..

* * *

النواة، هي نبات في مرحلته الجنينية.. إنها "بيضة مخصبة" تحتوي على كل صفات الجيل السابق الذي نتجت منه، وتكون مغلفة بغلاف صلب وسميك يوفر لها الحماية من المؤثرات والفروق الخارجية.. وتحتوي النواة أيضاً، في داخلها، على "غذاء" يكفي لحياة هذه البيضة المخصبة..

قد تبدو النواة، أو البذرة، كما لو كانت شيئاً؛ قد تبدو مثل خشبة، مثل أي شيء بلا عمق وراءه، لكنها في أعماقها تضم سر الحياة، في أعماقها تكون قد اقتنصت أهم ما في الجيل السابق، من حيوية، من فعالية، من شعلة النور تضيء بها الظلمة..

للوهلة الأولى، والثانية، والعاشرة، ستكون ساكنة "سكون الموتى"، لا أثر لعلامات الحياة عليها، وستظل تلك الإمكانيات الكامنة في داخلها لا تشي بوجودها.. إلا عندما

يحين الوقت والمكان المناسبان ..ستظل الحياة في داخل النواة - البذرة، محض احتمال، محض إمكانية، إلى أن تأتي شروط التفاعل الصحيح الذي يفجر الحياة ويحولها من مجرد احتمال، إلى ملكوت حقيقي هو ملكوت الواقع..

* * *

هذا عن "النواة - البذرة".. فماذا عن "النية"؟..

إنهما متناظرتان تماماً، مثل نقطتين متقابلتين على محور الأفق.. كل معنى في النواة، موجود أيضاً في النية.. والتشابه بينهما يتجاوز الفعل الثلاثي الجد، الذي تم اشتقاقهما منه.. إلى أن يكون ذلك الفعل "جذراً" مسؤولاً عن تغذية المعاني في كل منها..

كما النواة هي النبات في مرحلته الجنينية، فإن "النية" هي جنين نحمله في داخلنا، جنين يحمل كل إمكانياتنا وأحلامنا وطموحاتنا؛ جنين يمكن أن يكون كل ما يمكن أن نكونه، يحمل دوافعنا وحوافزنا، يحمل صفاتنا ومواهبنا وأيضاً أمراضنا وضعفنا..

النية هي تلك "النواة" - "البذرة" في أعماقنا.. تحمل معها سر الحياة، تحمل معها شعلة كامنة، تحمل معها الحيوية والفعالية - لكنها تظل ساكنة - كما تظل النواة ساكنة دون دليل على إمكانياتها الكامنة - وكما تكون النواة مغلفة بغلاف سميك وقوي يوفر لها الحماية، فإن النية تكون مغلفة أيضاً بغلاف مماثل، هو أجسامنا بكل تفاصيلها، التي هي بمنزلة الوعاء لتلك النية: (البذرة

والنواة)، الوعاء الذي يحتوي ويحمي كل تلك الإمكانات الكامنة..

(المدهش هو أننا نلهو عن النواة بغلافها، وبدلاً من أن ننتبه لمحتوى الغلاف، أي للنية، فإننا نقضي الوقت في الاعتناء بأجسامنا - الغلاف، ويشبه ذلك أن نستلم هدية ثمينة مغلفة بغلاف جميل، فنقضي الوقت في الاعتناء بالغلاف والزينة دون أن نحاول فتح الهدية واكتشاف محتواها..).

ومثل النواة، فإن كل ما في النية - يظل مجرد "أجنة" - مجرد احتمالات وإمكانيات لما يمكن أن يحدث لو توافرت شروط التفاعل المناسب.. وكما مع كل الأجنة، فإن الظروف غير المناسبة، ستجهضها وتمنعها حقها في فرصة الحياة..

النية هي كل ما يمكن أن نفعله فيما لو توافرت الظروف المناسبة، وقد تكون، في شروط أكثر تعقيداً ورقياً، في العمل على توفير هذه الظروف..

وكما أن أجود أنواع البذور لن تنجح في النمو في الظروف غير المناسبة، وقتاً ومكاناً، فإن "النيات الطيبة" ليست بالضرورة مثمرة، ما لم تجد البيئة التي تتفاعل معها وتمدها بشروط الحياة، بل إن "حسن النية" المفرط يؤدي غالباً إلى إجهاض مبكر.. وتلك "النية" إذا لم تتعامل أصلاً مع تغيير الشروط الموضوعية حولها لتكون شروطاً أنسب للنمو، أو على الأقل، انتقاء الشرط

الموضوعي الأنسب.. إذا لم تضع "النية" ذلك في "نيتها"، فإنها ستكون شبحاً هائماً بدلاً من أن تكون روحاً وثابة.. ستكون مجرد خاطر، أو احتمال.. أو كلمة "لو".. نقولها بين التحسر والتثاؤب.

* * *

بعض البذور، تسافر لكي تجد الظرف الأمثل.. إنها تركب الرياح، تستغلها، لكي تجد الظرف الأمثل، والشرط الأنسب للتفاعل، كما لو أنها تحمل قضية وهدفاً، تكون لها أجنحة، لكي تساعدها في التحليق نحو واقع أفضل لنموها وإثمارها..

كذلك "النية" في تناظرها الدائم مع النواة، إنها ترحل أحياناً لكي تجد الظروف الأنسب التي تحقق ذاتها فيها، وتخرجها من حيز "الإمكانات" إلى أرض الواقع وملكوته..

ويشبه ذلك، أن اللفظ في أصله اللغوي، كان يشير إلى ذلك السفر البعيد، والتحول من مكان إلى آخر، وهو المعنى الذي تجسد عملياً في "الهجرة" في أوسع وأعمق معانيها..

إنه ليس - بالضرورة - الرحيل إلى قارة أخرى في الطرف القصي من العالم، من أجل ظروف يفترض أنها أفضل، بل قد يكون أحياناً سلوك الطريق الأصعب (والأبعد) ولكن الأكثر إثماراً، ذلك الطريق الآخر الذي ربما لا يستلزم رحيلاً بالمعنى الجغرافي، ولكنه "انتقال" بالواقع برمته، إلى شروط أفضل، إنه المسافة الأكثر وعورة

والأكثر بعداً، ولكن الأكثر جدوى بين الخيال والمجرد والواقع المتحقق ..إنه نقل الواقع، ليصير ما كنت تنويه، ليصير ملكوتاً لما يجب أن يكون..

* * *

سيبدو ذلك بعيداً جداً، سحيق البعد عن "نويت أن أصلي فريضة الظهر أربع ركعات"..

نعم، إنه بعيد جداً، ولذلك فالنية ليست لفظاً، بل هي بمنزلة "برق" يضيء الأذهان، ولا يستغرق زمناً بالمعنى المعتاد - بل يكون موجوداً دوماً، في كل فعل، محفزاً، دافعاً، سبباً للأداء...

وهذا كله يقودنا، إلى اللفظ الآخر الذي يعبر عن الموضوع.. الإخلاص..

ثلاثة توائم يمكنهم أن يغيروا العالم..

ارتبط الإخلاص بلفظ العبادة في أكثر من عشرة مواضع في الخطاب القرآني.. وارتبطت المواضع الأخرى للفظ الإخلاص ومشتقاته بعمل ما.. أي إن الإخلاص ارتبط إما بالعبادة، أو بعمل ما قد يكون له مفهوم العبادة، وارتبط أكثر من هذا بلفظ الدين في أحد عشر موضعاً بالقرآن.. وهذا كله يجعلنا أمام متلازمة ثلاثية مرتبطة معاً في عقد واحد (العبادة - الإخلاص - الدين).. وهي متلازمة مرتبطة بالصلاة كما هو واضح، ومرتبطة بأشياء أخرى كثيرة من خلال ذلك أيضاً..

وينتج هذا مركباً فريداً من العلاقة بين المفاهيم، وهي علاقة تنتج بدورها مفهوماً آخر يأخذ شكل العدسة التي نرى من خلالها ملكوت السماوات والأرض..

ملكوت الواقع..

العبادة: تعبيد الطريق إلى الهدف

العبادة، تقليدياً، اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه..

لكن هذا شمول شديد الإيجاز، وقد تراكم على أفهامنا له صدأ وكلس يحتاج إلى أن نجلوه لنعيد تفاعلنا معه..

عَبَد في لغة العرب: هي أطاع وخضع وتذلل.. وهذا المعنى - الأصل، واضح في المعنى العام للعبادة؛ إذ تظهر الطاعة والخضوع والتذلل لمعبودك.

لكن قد يكون إظهار الطاعة شيء، والطاعة الحقيقية شيء مختلف أحياناً.. فلا بد إذن أن يكون هناك معنى أعمق من المظهر، جوهراً لمعنى هذا الفعل، لا بد أن يؤثر على كل مظاهره، وعلى فهمنا لمعنى "عبَد"، سواء كان الاشتقاق عبادة، أم عبودية..

المعاني تسكن أولاً الأشياء المادية ، ذات المظهر المادي المباشر القريب من الواقع، وبعدها تحلق في عالم التجريد والأفكار، وتكون هذه الأشياء المادية صلة الوصل في أذهاننا، للمعنى الأعلى، المعنى الذي يجب أن يكون..

وإذا كان الجذر (عَبَد) قد تمظهر في ملكوت الواقع

بشيء مادي ومباشر، يمكن أن نفهم منه ما وراءه، فهو قد تمظهر في (الطريق المعبّد) في الطريق الذي وطئته الأقدام إلى أن صار (معبداً) خاضعاً..

هذا هو المعنى الأول للخضوع - للتذلل، أن تكون معبداً مثل طريق ذللته الأقدام، وكونته بالطريقة التي تجعله مهيأً وميسراً للسير.. لكن هذا المعنى، يضم، فيما يضمه، معنى التشكل، والتكوين.. فالطريق (شكل) و (كون) ليكون مهيأً لسير الناس عليه.. بالضبط، إن عملية التَّعبيد هي عملية إعادة تكوين الطريق، وإعادة تشكيله، بحيث يكون ما شق أصلاً لأجله..

بهذا المعنى، ومن ضمن هذا الجذر، فإن معنى العبادة، سيكون بمنزلة عملية إعادة التكوين والتشكيل بالذات، إنها ستكون إعادة تكوين وتشكيل نفسك لتكون كما أراد منك معبودك أن تكون..

إنه يشمل، بالتأكيد، وجودك هناك عندما يريدك أن تكون، (بالطريقة التي يريدك أن تكون فيها)، ولكن الأين والكيف. لن تقف أبداً عند حد مواقيت الصلاة وهيئاتها؛ بل ستتجاوز ذلك لتكون كل الوقت الذي منح لك ابتداءً على هذه الأرض، أي عمرك كله، على الأقل من سن التكليف، أي عندما تصير مهيأً لأداء "ما أرادك أن تكون"..

وما أرادك أن تكونه قد حدده منذ زمن بعيد، قبل أن يخلق النموذج الإنساني الأول، آدم، لقد أراد منا أن نكون خليفته، سبحانه وتعالى، على الأرض..

أن تعبد الله، هو أن تكون ما أرادك أن تكون، أن تكون ما وضعك من أجله..

وما خلقت الإنس والجن إلا....

وهنا نقطة الاتصال بين ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٢/٣٠] وبين ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥١/٥٦] أي ليكونوا كما أردتهم أن يكونوا.. ليعبّدوا الطريق نحو تلك القمة العالية التي خلقوا ليكونوا فيها..

أليست العبادة إذن اسماً جامعاً لكل ما يحبه الله ويرضاه؟.. بالتأكيد، لكل ما يحبه لنا أن نكون، يرتضيه لنا أن نكونه..

إذن ما علاقة الشعائر بالموضوع، إذا كانت "العبادة" هي مفهوم شامل وجامع لأدائنا الوظيفي على هذه الأرض.. ؟

كما قلت، إنها دورة تدريبية لا غنى عنها، في تحسين هذا الأداء، وإتقانه.. وتحديد اتجاهاته..

الإخلاص: ثنائية الإثبات والنفي

فماذا عن الإخلاص إذن؟..

الإخلاص لغة هو النجاة، كان يقال عن الرجل أنه خلص إذا نشب، ثم نجا وسلم، ونشب أي أصيب بسهم قاتل، ثم انتزع منه، ونجا وسلم..

أي إنه النجاة، مما نسميه موتاً محققاً..

كيف يتوازن هذا مع مفاهيمنا ومع السياق الذي نحن فيه؟..

إنه يعني، أن "الإخلاص" هو عملية حركية، هو تفاعل مستمر، لكنه تفاعل "طرد" لا تفاعل تراكم، إنه عملية تفاعل مستمرة مع المحيط من أجل تحديد ذلك "السهم" الذي أطلقه المحيط ومتغيراته، ومن ثم انتزاعه.. والخروج من ذلك كله، النجاة منه.. كما يكون اللبن خالصاً من بين فرث ودم، ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [النحل: ٦٦/١٦].. لا يكون الماء خالصاً؛ لأنه يخرج ماءً فحسب، لكن اللبن هو الذي ينتج من عملية التفاعل هذه ليصل إلى أن يكون خالصاً..

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي﴾ [يوسف: ٥٤/١٢]، أي أن أنزع عنه كل ما يمكن أن يكون شريكاً فيه.. وفي سياق قصة يوسف.. كان ذلك معناه أن أجعله وزيراً عندي، ولا يعمل في أي عمل آخر، أو عند أي شخص آخر..

﴿وَقَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا﴾ [الأنعام: ١٣٩/٦].

عملية الطرد مرة أخرى، أن تكون الأنعام خالصة للذكور، معناه - ولا بد - أن تكون محرمة على غير الذكور..

﴿إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأحزاب: ٥٠/٣٣].

هنا أيضاً تتوضح عملية الطرد؛ فأن تكون زوجة خالصة للنبي من دون المؤمنين، يعني أن ذلك سيكون دائماً، وأنها ستكون زوجة لرجل واحد خالصة له، "طاردة" كل احتمالات الزواج من رجال آخرين..

* * *

وهذا هو ما نقصده، عندما نستعمل كلمة الإخلاص في حياتنا اليومية بلا تكلف، عندما تكون زوجاً مخلصاً، أو زوجةً مخلصة، أو صديقاً مخلصاً، أو مخلصاً في عملك، فإن ذلك يكون بوجود طرفين في هذا الإخلاص: طرف أنت مخلص له، وطرف آخر، هو رمز لكل الأطراف الأخرى، التي (طردتها) - من إخلاصك، عندما أخلصت للطرف الأول، ولا يعني ذلك بالضرورة عداء مع هذا الطرف، إلا عندما يحاول أن ينتزع إخلاصك، ويرميك بسهم، عليك أن تنتزعه لتنجو.. عليك أن تنتزعه لتخلص..

* * *

الإخلاص إذن، (إثبات) لطرف واحد و (نفي) لبقية الأطراف كلها..

ثنائية الإثبات والنفي تتوضح وتتركز في سورة قصيرة جداً، وربما لذلك سميت سورة الإخلاص، رغم عدم وجود لفظ الإخلاص، أو أي من مشتقاتها في سياق السورة..

ثلث القرآن.. ولكن حياتك كلها...

﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾

[الإخلاص: ١١٢/١-٤].

الإثبات هنا لم يكتمل إلا بالنفي. والنفي كان عاماً وشاملاً بحيث إنه لم يبق غيره هو، الأحد، الصمد..

فآلية النفي استثنت كل ما يمكن أن يخطر في البال، كل ما على هذه الأرض هو خاضع تماماً لهذا الوصف: إما أنه قد ولد أو أنه سيولد غيره، بالمعنى الأعم للولادة طبعاً، معنى احتياجه إلى غيره من أجل وجوده، استمراره، كونه شيئاً مذكوراً على سطح الأرض..

وهذا يشكل كل ما يمكن أن يخطر في البال قطعاً: الأصنام والأوثان بمعناها المادي والمباشر، أو بما ترمز له من مصالح اقتصادية أو مفاهيم عشائرية.. إلخ..

ويشمل أيضاً الأفكار والإيديولوجيات بمختلف أنواعها.. ويشمل أنماط الحياة وتجلياتها ورموزها، ويشمل من باب أولى، المعبودات البشرية، سواء تجسدوا قادة وزعماء أو مصلحين أو مفكرين أو "نجوم فن ورياضة" صاروا مثلاً أعلى للأجيال..

كل ذلك، خاضع لقانون "الولادة والتولد"، حتى الطبيعة الأم التي يزعمون أنها كانت المسؤولة عن الخلق، لا بد أنها نتجت عن شيء ما سبقها، وحتى لو كان غير ذلك،

فإنهم يزعمون أنها أنتجتنا، بدلالة اسمها: "الطبيعة الأم"، وهذا يضعها أيضاً في خانة "الذي يلد"..

وهذا يجعل كل شيء، عملياً، في حياتك كلها، خاضعاً لذلك النفي، باستثناء الله، عز وجل، سيكون صمداً حيث لن يصمد الآخرون ومفاهيمهم.. سيظل وحده، وسيكون وحده الذي يمكن أن نخلص إليه، بينما ننزع، بأيدينا، سهام الإيديولوجيات والأوثان وأنماط الحياة.. ونلتفت إليه، مخلصين له..

* * *

لذلك فإن عملية "الإخلاص" بالمعنى التام، لا يمكن أن تكون منفردة وحدها؛ وإلا فإنها ستكون بلا معنى..

لا معنى في أن تكون مخلصاً فقط؛ المعنى هو أن تكون مخلصاً لشيء ما، لا يتم الإخلاص إلا بالإضافة، بعلاقة تنفيه عن شيء وتربطه بشي آخر..

وبين كل الأشياء، فإن أرقى أنواع الإخلاص، قرآنياً، هو الإخلاص للدين.. الذي ورد في أحد عشر موضعاً، في القرآن الكريم..

الدين رؤية للعالم..

وهذا يقودنا إلى المفردة الثالثة، في المتلازمة الثلاثية: الدين..

كلمة دين صارت الآن تعبر عن مفهوم واسع، والتعريف السائد موسوعياً الآن ليس بالضرورة مترادفاً أو حتى

مقارباً مع المقصود القرآني للمفردة.. فكلمة "دين" في الموسوعات العلمية تتطرق إلى الدين بمعناه الشعائري والطقوسي سواء كان سماوياً أم وثنياً، والذي يتضمن على الدوام بعداً (غيبياً)..

التوظيف القرآني للمفردة "الدين" مختلف.. وهو توظيف لا يطرد الاستخدام السابق، ولكنه يوسعه ليكون بمعنى اجتماعي أكثر، هذه التوسعة لا تشمل ارتباط الدين بالغيب ومفاهيم ما يسمى ما وراء الطبيعة، بل إنها تجعل من مفهوم الدين أعم وأشمل ليدخل في كل معتقد، وكل "إيمان" بصورة عامة.. حتى لو كان إيماناً بالشيوعية.. أو بالإلحاد.. أو باللا شيء.. إلخ.

أصل هذا التوظيف، راجع إلى معنى جذر كلمة دين في لسان العرب..

* * *

أصل كلمة (دين)، يعود إلى دان، وأدان، وهي تعني القضاء والحكم، ومنها "الديّان" - عز وجل - و "ديّان العرب" وهو قاضيهم وحاكمهم.. وقد أطلق اللقب على الرسول الكريم عليه أفضل الصلاة والسلام، وعلى سواه من بعد وفاته..

ومنها "يوم الدين" أي يوم القضاء والجزاء.. حيث سيصدر الحكم على الجميع..

إذن، كلمة (دين)، مشتقة من فعل يعني "الحكم" و "القضاء"، هل يعطي هذا صورة مسيسة للدين؟ ربما للوهلة

الأولى فقط، عندما يكون كل ما نفهمه من كلمة الحكم هو المعنى الظاهري المباشر للأمر، معنى السلطة وآلياتها وتنفيذ أوامرها..

لكن (الحكم) يعني أيضاً ما هو أعم وأشمل: إنه يعني "طريقة الحكم" على الأشياء، وطريقة قياسها، تقييسها، إنه "ميزان الأمور"؛ "العدسة" التي من خلالها ترى الأمور بحجم معين وقرب معين ولون معين، الأشياء في هذا العالم هي كما هي، لكن اختلاف العدسات يولد اختلاف الرؤى، واختلاف النظريات واختلاف الآراء والأحكام..

الدين هو هذه (العدسة) التي تضعها على عينيك لترى العالم من حولك، إنه رؤية للعالم، منظور لرؤية كل ما هناك من زاوية معينة، من خلال بعد بؤري معين.. يتم خلاله تقويم كل شيء من خلال هذا البعد البؤري..

* * *

إذن ليس الدين بالضرورة إيماناً بنبي معين وكتابه ورسالته السماوية، ليس بالضرورة إيماناً بغيب وما يتصل به، بل هو أي (رؤية للعالم) - أي منظور يتم من خلاله الحكم على الأشياء..

فالرؤية المادية، التي تصطدم مع الأديان السماوية وتتناقض معها، هي أيضاً (دين) بهذا المعنى، وكذلك أنماط الحياة التي ترتب أولويات الأمور وتحكم عليها من خلال مقياس وميزان معين، وهكذا، فإنك عندما تدين الأشياء، تحكم عليها، بطريقة معينة، وفق نسق معين، كما

يدين ويفعل نسق حضاري معين، وإن لم يكن يسمي نفسه أو يعلن انتماءه إلى دين، فإنك تدين بطريقة حكم هذه الحضارة، أي بدينها، حتى لو كنت تؤدي شعائر لدين آخر عزلت نفسك عن محتواه القيمي وطريقته في الحكم على الأمور..

* * *

لم يكن مشركو مكة يملكون ديناً له قوام واضح محدد المعالم، يمتلك المواصفات التي تجعله ديناً بالمعنى الموسوعي العلمي السائد؛ كانوا يمتلكون أوثاناً تعبر عن عشائرهم ومعتقداتهم، وكان لهم أيضاً معتقداتهم وخرافاتهم وقيمهم التي كانت بمثابة قانونهم الذي يسيرون عليه مع عدم تماسكه وتناقضه في كثير من الأحيان.

لكن مع ذلك، فإنهم كانوا يدينون بهذا، ويحتكمون له، وكان هذا كافياً لكي يسمى ديناً..

ما دام أي مجتمع يملك ما يحتكم إليه، وهذا ضروري ودائم ما دام قد تكون مجتمع وبني على أساس معين، فإن له ديناً...

ولهذا فإن أساس الفصل القرآني سيظل واضحاً: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝٦﴾ [الكافرون: ١٠٩/٦]..

ليس لكفار مكة فحسب، بل لكل من يمتلك مقياساً آخر للأمور، رؤية مختلفة للعالم، يُحتكم لها وعلى أساسها..

﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝٦﴾ [الكافرون: ١٠٩/٦]..

الإسلام الرؤية الأشمل والأكمل للحياة

ومن هذا الفهم، يمكن أن نقرأ آية ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩/٣]، فالدين هنا هو رؤية للأمور وتقييمها وترتيب أولوياتها، وكلما كانت الرؤية جزئية، منصبة على جانب معين أو زاوية معينة، كانت أبعد عن الحقيقة، وكلما اقتربت هذه الرؤية من الشمول، ومن الاحاطة بجميع الأركان والزوايا، وبحجمها الحقيقي، وبحجم كل منها مقارنة بالآخر؛ اقتربت هذه الرؤية من الحقيقة أكثر فأكثر..

ولأن الرؤية الإلهية هي رؤية مطلقة، متعالية عن المكان وعن الزمان فإن كل شيء يقيَّم فيها ضمن حجمه الطبيعي والحقيقي، وهذا هو الإسلام في جوهره، الإسلام الذي هو رؤية شاملة متوازنة للحياة، لا تضخم شيئاً على حساب شيء آخر تصغره..

* * *

وكيف يمكن لك، أو لأي أحد أن ينسلخ عن الرؤية المتوارثة لمجتمعه ويرفضها، ويبحث عن رؤية أخرى، أكثر توازناً وعدالة، ثم لا يصل إلى الإسلام؟ (أعني الإسلام - الاسلام حقاً - وليس أوضاع المسلمين وفهمهم)..

كيف يمكن لمن استطاع أن ينفصل عن رؤية مجتمعه وحضارته وكل ما يدين به من حوله، وأن يبحث عن حقيقة أخرى أكثر التصاقاً بالكون من حوله، ثم يسهو عن تلك

الحقيقة الكبرى التي تلف الكون، وأن يستسلم لها عبر الإسلام؟..

﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٨٥)﴾ [آل عمران: ٣/٨٥]

* * *

نحن أمام مركب من ثلاث مفردات إذن.. وقد تأملنا في كل مفردة من مفرداته..

فماذا يحدث عندما تتحد العناصر مع بعضها بعضاً؟.. وكيف تقدح شرارة مضيئة عندما يحتك كل عنصر مع آخر؟..

عدسة الدين الخالص

"مخلصين له الدين"، "الدين الخالص"..

هذا هو الوصف المتكرر للدين في القرآن الكريم، وقد عرفنا معنى "الخالص"، ومعنى "الدين"؛ فما معنى الدين الخالص؟..

إنه يعني الرؤية الخالصة للأمور، من دون وجود أثر لرؤى أخرى، إنه وسيلة التقييم التي لا تختلط بوسائل أخرى، وتقييمات أخرى، إنه ترتيب الأولويات وفق نسق خاص لا تؤثر عليه أنساق أخرى، ولا تعيد ترتيب أولوياته، ولا تغير ثوابته رؤى أخرى سواء كانت تابعة لمنظومات اجتماعية أم دينية أخرى.

إنه سلامة تلك العدسة بعد أن نزعت عنها سهام الرؤى الأخرى، لا يمكن أن تكون العدسة خالصة إلا إذا خلصتها من تلك الرؤى المختلفة، ولا يمكن أن تبقى العدسة خالصة لحالها، من دون أن تشوبها رؤى أخرى، لأن ذلك يعني أنها مغمضة، وأنها لا تتفاعل مع المحيط بها، التفاعل يحتم دخول الشوائب، لكن المهم هو أن تكون جهة التفاعل هي التنقية؛ وهي طرد الشوائب، التي تقوي العدسة، وتجعل البصر حديداً..

وأن يكون هناك "تفاعل" مع المحيط دوماً..

لكنه تفاعل يتجه إلى التنقية، لا إلى التراكم..

* * *

في داخلنا رجلان !

أفضل مثال لذلك الدين الخالص، يجسده الخطاب القرآني في إنسان هو النموذج، وهو الهدف.. فالحديث عن الدين، وعن الإخلاص، وعن الدين الخالص ليس حديثاً مجرداً بلا ارتباط واقعي وعملي، بل إن هذا الحديث يرتبط في النهاية بإنسان هو الذي يحول الأفكار المجردة، إلى الواقع، ويحول الأمر الواقع إلى ملكوت الواقع..

هذا الإنسان النموذج يتجسد في سورة الزمر، وهي من أكثر سور القرآن الكريم التي وردت فيها مشتقات لفظ الإخلاص..

وسيكون ذلك كله مجسداً في رجل، ويكون "الضد" منه مجسداً أيضاً في رجل آخر..

ويتقابل الرجلان - وجهاً لوجه، ليس في حلبة مصارعة أو ساحة قتال؛ بل في داخلنا شخصياً، في داخل كل منا، في أعماق الأعماق البعيدة عن السطح والقناع..

من هما هذان؟..

* * *

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [الزمر: ٢٩/٣٩].

ليس المثل فقط عن رجل من زمن الرق وملك اليمين، كما سيخيل للبعض وكما سيحلو للبعض أن يتصور وأن يؤكد، ليس المثل عن أمر لم يعد موجوداً في زمن الحرية المزعومة؛ بل هو عن حقيقة يومية تتجاوز الأقنمة والشعارات..

رجلٌ فيه رجال متشاكسون؟.. ليس عن أشخاص امتلكوا جسده بالضرورة واختلفوا فيما بينهم على امتلاكه، بل عن رموز وأفكار استلبت روحه وبصره وعقله وأسلوب تفكيره ونمط حياته.. عن "أشخاص" يمثلون حضارات أخرى، أو أدياناً أخرى، أو إيديولوجيات أخرى، يتشاكسون ويختلفون ويتصارعون فيما بينهم على امتلاك هذا الرجل، الذي هو ساحة صراع ومنافسة بينهم جميعاً.

والرجل الآخر، من هو؟..

إنه رجل سلم لرجل!.. ومرة أخرى لا يعني هذا إشارة إلى عقد "صحيح الملكية" في زمن الرق، بل هو يشير إلى وجود رؤية واحدة، إلى وجود رمز واحد في ذهن هذا الرجل، يهيمن على فكره وعقله وظاهره وباطنه..

ولا بد أن نذكر هنا أن "سلم" تعني عند العرب وفي لسانهم، أنه نجا وخلص بعد أن نشب سهم فيه. أي إنه انتزع السهم انتزاعاً بعدما أصابه..

إنه رجل واحد، هذا الذي "امتلك" الرجل الآخر، وكان هذا السبب في أنه "سُلِمَ" في أنه نجا وخلص من كل الشركاء المتشاكسين كما ينجو من انتزع من قلبه سهم مميت.. ليس فيه ما يتشاكس مع بعضه بعضاً؛ إنه منهج واحد هذا الذي يملي عليه فكره وسلوكه، العدسة التي يرى من خلالها العالم واحداً، ولذلك فهو يرى بشكل أوضح.. ليس ثمة رؤى متضاربة، ما من تشوش في الرؤية هنا، أو قصر في النظر هناك؛ لذلك فإنه يستطيع أن يعمل بشكل أفضل، أن ينتج بشكل أفضل، أن يبدع، أن يكون ما أراده الله أن يكون..

هل يستويان؟..

هل يستوي من في داخله صراع مستمر بين الرؤى والأفكار، من يكون ظاهره غير باطنه، من يكون سلوكه في واد، وأفكاره في واد آخر تماماً، من تكون أحلامه السرية ورغباته باتجاه، وما يعلن عنه في العلن في اتجاه آخر تماماً ..هل يستوي من يكون فيه شركاء متشاكسون، مع

من حسم أمره، انتزع تلك السهام التي أصابت رؤيته بمجرد التفاعل مع المحيط..

هل يستوي من تشتته الرؤى وتجعله (فرطاً) لا يعرف ماذا يريد وأين يريد وأين هو، مع من استطاع أن يحدد هدفه واتجاهه، وموقعه أصلاً؟..

هل يستوي من هو مصاب بالفصام، وذهنه متشظٍّ كأنه عدة أشخاص يتنافسون فيما بينهم؛ ومن هو واحد، كل على بعضه، سوي الذهن بمركز واحد وبؤرة واحدة؟..

الصراع وصولاً إلى الإخلاص..

ولننتبه هنا، أن الرجل الآخر، النموذج الأعلى للإخلاص، ليس شخصاً لم يمر بالصراع؛ إنه لم يولد وهو (سلم) لرجل واحد.. لأن اللفظ (سلم) يعني ضمناً انتصار شخص واحد بعد صراع.. بينما لفظ (المشاكسة) يوحي بمناكفة لا تنتهي، وصراعات لا تصل أبداً لحسم..

وهذا هو الإخلاص فعلاً؛ لا أحد يولد مخلصاً، بل هو التفاعل مع المحيط، وانتزاع الرؤى الأخرى، ولو بألم وجهد كبيرين.. كما سيحدث عندما يصيب سهم ما وسط قلبك، وتمد يدك - المرتجفة - وتنزعه رغم الألم..

* * *

وليس (الرجل الآخر) بليداً لم يمر بصراع أولئك المتشاكسين فيه، لكنه استطاع أن يحسم أمره، وأن يحدد موقعه، وأن يكون مع واحد منهم، الواحد الأحق بأن يمتلك أفكاره وعقله وعواطفه..

في داخل كل منا شيء كهذا.. وإن أنكرنا، وإن بالغنا في الإنكار، وإن أصررنا أن الأمر يخص مرحلة تاريخية ولت وانتهت..

في داخل كل منا بضعة أشخاص متشاكسون، ربما الأشعة لن تكشف وجودهم، ربما التخطيط الدماغي لن يستطيع أن يحدد عددهم.. لكنهم موجودون هناك، قد تلمحهم أحياناً وأنت تسير فإذا بك تملك عدة ظلال، وأحياناً قد تنتبه فإذا بهم قد سرقوا منك ظلك.. قد يخيل إليك أحياناً أنهم يظهرون ببعض وجوههم في المرآة بدلاً من وجهك.. قد تجد نفسك تنفذ ما يملونه عليك - وقد يسلبون منك إرادتك ويزورون توقيعك، فلا تعود تفرق بين ما هو "أنت" - وما هو "هم"..

في كل منا شيء كهذا، ذلك الصراع بين الرؤى، والأفكار، وأنماط الحياة، والإيديولوجيات، وصناديق الأحلام القادمة من حضارات أخرى لها منطلقات وثوابت مختلفة. كل من هذه تتمثل في "رجال متشاكسون" يسكنون الكثير منا، ويقضون وقتهم في مناكفة لا تنتهي، ولكنها تنهي فعالية هذا الرجل وإمكاناته الكامنة..

والأمر هو أن تحسم هذه المشاكسة، وعلى الأخص أن تحسم بالطريقة الصحيحة..

اختلاط الرؤى: التخطيط للفشل

في السورة ذاتها، سورة الزمر، هناك آية ترتبط بالموضوع، كما مع آيات أخرى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى

ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [الزمر: ٣٩/٦٥]

للوهلة الأولى، يبدو التحذير غريباً ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ﴾ [الزمر: ٣٩/٦٥] هل يعقل أن يسقط من يوحى إليه (الأنبياء والرسل) في فخ الشرك؟.. وهو الأمر المنافي أصلاً لأهليتهم لاستقبال الوحي؟..

لكن الشرك هنا، انسجاماً مع سياق السورة الذي يتحدث عن الإخلاص، وعن الرجل السلم، والرجل الذي فيه شركاء متشاكسون؛ هو ليس الشرك بمعناه الجامد المباشر الذي سيتنزه عنه كل من له عقل، فضلاً عمن يوحى إليه، ولكنه أن تشترك رؤية أخرى، من منبع آخر، من مصدر حضاري أرضي، مع الرؤية الأصل - الرؤية الشمولية الإلهية المصدر..

عندما تختلط الرؤى، وتشترك رؤية مع أخرى، بكل التناقضات الداخلية في ذلك، ينتج الأمر فشلاً ولا بد.. كما سيفشل أي مشروع كان لمعدّيه (أو لمعدّه) رؤى متناقضة غير منسجمة، فبعض المشاريع تفشل لا لأن مشاريع أخرى هزمتها، بل لأن تناقضاتها الداخلية تحتم فشلها..

عندما تتعدد الرؤى، في تناقض، تشترك فيما لا ينبغي أن تشترك فيه، يحبط العمل..

﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾.

القمة: عبادة عبر الدين الخالص

وهذا ما يقودنا إلى المفردة الثالثة، في تلك المتلازمة (العبادة - الإخلاص - الدين) فإخلاص الدين، الذي هو الرؤية الخالصة المنقاة من خلال وشوائب الرؤى الأخرى، يستلزم عملاً معيناً هو العبادة تحديداً، والعبادة هنا ليست أي عمل بالمطلق، كما أنها ليست ما تعودنا أن نفهمه من "العبادات"، إنها - كما مر - أن نكون كما أمرنا معبودنا أن نكون، أن نتشكل، نتكون كما يريدنا أن نتشكل..

إذن هو عمل معين، مرتبط برؤية خالصة، معينة أيضاً..

﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة: ٩٨/٥].

﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾﴾ [الزمر: ٣٩/١١].

﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِي ﴿١٤﴾﴾ [الزمر: ٣٩/١٤].

العبادة، مع إخلاص الرؤية / الدين..

إذن هي ليست رؤية نظرية، في برج عال، ليست فكراً تنظيرياً يتلهى بالتجريد عن الواقع، إنها "عمل" أيضاً، عمل متوافق ومتطابق مع الرؤية..

إنها سلوك وفق مواصفات محددة، مواصفات تحددها الرؤية / الدين.. بالمختصر: تطابق الفكر مع السلوك..

المسافة الحتمية بين الفكر والسلوك

بين الفكر والسلوك، فلنعترف، مسافة حتمية.. لم يجسرها تماماً ولم يردم الهوة المزمنة سوى الأنبياء والرسل.. عدا ذلك فإن البشر عموماً، لا يستطيعون ردمها تماماً، وهناك مسافة تمد وتجزر، تقل وتزيد، عند الجميع.. قد تكون مجرد مسافة بسيطة يمكن عبورها - ويمكن حتى إهمالها.. وقد تكون هوة سحيقة، لا ترى عندما تكون في ضفتها الأولى، شاطئها الثاني.. تمثل عندئذ فصاماً نهائياً بين الفكر والسلوك لدرجة أن الفكر قد يكون محلقاً في الأعالي والمثاليات، والسلوك والغاً في الوحل..

أن تعبد الله مخلصاً له الدين، وهي المتلازمة الثلاثية التي تفسر معنى الإخلاص ومن ثم معنى النية، لا في الصلاة فقط، ولكن في الحياة كلها، أن تعبده مخلصاً له الدين، يعني أن رؤيتك للحياة تنطابق- أو تحاول أن تتطابق- مع سلوكك وعملك فيهما، وأن الدين لا يسكن على رفوف الكتب أو في رأسك فقط، بل مكانه الحقيقي يجب أن يكون فيما تفعله، وما تنتجه.. في أن تؤدي ما خلقت من أجله، على هذه الأرض..

* * *

ويقودنا ذلك، إلى بعض المثقفين، الذين يقولون، إنهم يعتنقون الإسلام "كرؤية للحياة". ويعني ذلك، أنهم لا

يعتنقون الجزء العملي منه، فهذا الجزء هو لعوام الناس، أما هم، فقد تجشموا عناء اعتناق الرؤية الفكرية فقط..

لكن ذلك لا يمكن أن يتسق مع طبيعة التركيبة القرآنية (العبادة - الإخلاص - الدين)، فهي مكونة من العناصر الثلاثة معاً، ولا يمكن فصل أي منها، بالضبط كما لا يمكن أن تفصل ذرة هيدروجين من جزيئة الماء، وتتصور أن الماء بقي ماءً..

لا يوجد شيء اسمه الإسلام كرؤية للحياة منفصل عن الأداء المتصل بهذه الرؤية..

الإسلام، بالتعريف، ينفي حتى إمكانية ذلك..

وعندما يكون هناك شيء كهذا، فإن الناتج واضح: أن يكون العمل قد أحبط.. وأن الأفكار ظلت مجرد أفكار، مثل شبح هائم في بيت مهجور..

الرجل الآخر يصير زمرة والزمرة ترث الأرض

وعندما لا يكون ذلك تتقلص الهوة بين الفكر والسلوك، ويحسم أمر أولئك المتشاكسين في الداخل، فإن الرجل الذي هو (سلم) لرجل، سيختلف، سيكون أكثر قدرة، وأكثر قوة، وأكثر بصيرة..

إنه الرجل نفسه، الذي تحكي لنا سورة الزمر ذاتها، ما الذي سيحل به، وكيف سيحلق بالأجنحة الثلاثة معاً (العبادة - الإخلاص - الدين)، لا يحلق بعيداً عن الأرض وعن الواقع؛ بل يحلق ليرفع معه الواقع.. ليبني ملكوت الواقع..

سورة الزمر تحكي لنا عن ذلك.. لم يعد ذلك الرجل واحداً - لقد تخلص من فرديته وحطم قفص الأنا.. صار جزءاً من النحن، صار جماعة.. صار زمرةً..

وما الذي فعلته هذه الزمرة؟..

لقد أدت ما خلقت من أجله.. لقد ورثت الأرض.. التي خلقت من أجل أن تكون "الخليفة" فيها..

﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾﴾

[الزمر: ٣٩/٧٤].

مسيرة الإخلاص لم تقف عند الرؤية المجردة، بل توجت بالعمل (أجر العاملين)، وكان أن الأرض ورثت..

وصار أن الجنة - نفسها - ستكون جزاء وراثتهم للأرض..

جزاء ملكوت الواقع، الذي بنته تلك الزمرة..

* * *

النية إذن هي ذلك الركن الذي لن تراه بالعين المجردة، - ولن تؤديه بصوت عال، ولن تشمر عن ساعديك في أثناء القيام به، لكنه كفيل بأن يحبط عملك كله لو كان فيه خلل..

(النية) هي أوضح نقطة من ذلك الجبل الغاطس تحت الماء.. إنها النقطة التي تلتقي فيها الرؤى والأفكار النظرية مع العمل، إنها تلك المنطقة المتوهجة التي تلتقي فيها الدوائر وتتداخل، إنها أقرب منطقة تكون فيها الأفكار

على وشك النزول إلى الواقع، إنها بالضبط الباب الذي يمكن أن تدخل منه الأفكار المثالية إلى حيز التطبيق..

النية هي أن تفهم كل ذلك؛ أن صلاتك هذه ليست إسقاطاً لفرض، بل هي "إقامة" لفرض، وأنها تحتوي في داخلها على منظومة كاملة متكاملة من الأفكار، وأن مشروعك في الصلاة هو محاولة أولية يومية، متكررة دؤوبة، لتنزيل تلك الأفكار إلى الواقع..

هل يعني ذلك أن علينا استحضار ذلك كله عند كل صلاة؟..

الأمر لا يتعلق باستحضاره الحرفي أو اللفظي - فذلك أمر غير ممكن عملياً؛ وغير مفيد أصلاً.. لكنه أن تمر في بالك صورة ذهنية - كالبرق - عن ذلك كله.. وكما البرق يضيء الدرب المظلم، فإن تلك الصورة الذهنية، ستضيء الذهن..

لا، ليس كالبرق ! فالبرق يضيء لثوان فقط، والنية مثل تيار كهربائي، تسري في أجهزة ستكون قبل السريان ميتة، فتبعث الحيوية والفعالية فيها..

"كبسة زر" الكهرباء لا تستغرق إلا ثواني، كذلك النية، إنها مثل كبسة الزر، لا يكاد يأخذ وقتاً على الإطلاق، ومع ذلك فإنه يمكن أن يكون الفرق الحاد بين ظلمة دامسة ونور تام..

الفصل السادس

التكبير: إشارة الانطلاق..

ثم يأتي التكبير..

إنه الشعار نفسه الذي افتتح به الأذان، وها أنت ذا تردده الآن، الآن هو الوقت الذي تحاول فيه تنزيل الشعار إلى التطبيق، تحول "الله أكبر" من ألفاظ وأصوات إلى معان متجسدة على أرض الواقع.. ذلك أن الشعارات دوماً سهلة، ليس هناك ما هو أسهل منها، والمصداقية تمتحن لحظة النزول إلى الواقع، لحظة الشروع في التطبيق، هناك، وهناك فقط، يكون الامتحان والمحك الحقيقي، وهناك ستكون هزيمة الأفكار (أو نموها وازدهارها)، وهناك أيضاً سيحتج المحتجون بالمرونة والواقعية، ليبرروا، نظرياتهم التي ظلت مجرد حبر على ورق.. ولم تستطع النزول إلى الواقع..

(الله أكبر) عند بدء الصلاة، تذكرك بتلك الحقيقة، التي ربما صرنا نراها محض بديهة، لكننا قلما نلتفت إلى موضع امتحانها في موضع المحك؛ في نفسك، في

محيطك المحيط بك.. في قراراتك، في خياراتك واختياراتك..

(الله أكبر)؛ جملة اسمية، مكونة من مبتدأ وخبر، لكن **ما هو موقعها من الإعراب في حياتك؟.. ما هو موقعها الحقيقي من الإعراب فيما تبنيه وتتجه في حياتك..؟؟**

الخبر المحذوف تقديره حياتك كلها..

لكن لا !..

(الله أكبر) جملة اسمية، كلها مبتدأ، أما الخبر فهو ليس فيها حقاً، إنه خبر محذوف، من واجبك أنت أن تحدد هذا الخبر، عبر حياتك كلها، عبر كل خطوة في الطريق، عبر كل مفترق طريق تمر به..

يمكن أن تكون حياتك كلها خبراً واحداً، يؤكد تلك الجملة الاسمية ويكون مصداقاً لها، أو أن تكون حياتك إثبات ما كنت تقوله من أن "الله أكبر" حقيقة؛ أو أنه كان مجرد كلام في الهواء.. مجرد شعار آخر لم تطبقه في حياتك..

* * *

ترفع يديك.. وتقول الله أكبر..

لكن، هل حياتك خارج أوقات الصلاة، تنسجم مع ذلك، هل الله وموازينه وحكمه وقيمه، أكبر، أم أنهم "هم" أكبر عملياً، حتى لو كنت تتجاهل ذلك على مستوى

الشعارات ومواجهة الذات، وتطبقه عملياً دون أن يرمش لك جفن؟..

هم؟.. من هم؟.. من هم أولئك الذين هم "أكبر" في نفسك وواقعك من الله الذي هو الأكبر حتماً وقطعاً؟..

إنهم بضعة أشخاص متشاكسين في داخلك، كل منهم يمثل جهة تجذبك، كل منهم يمثل رؤية أخرى، حضارة أخرى، أو نمط حياة آخر، أو سلم أولويات آخر، أو سياق ثوابت وقيم آخر..

واحد منهم يمثل بهرجاً براقاً لحضارة زائفة، مجرد قشرة زاهية الألوان لا تحوي عمقاً أكبر، وواحد منهم سيكون عمقها وقوامها وسبب قوتها، لكنه قد يكون قواماً مختلفاً عما يجب أن يكون قوامك..

واحد آخر سيأخذ أسوأ ما في تلك الحضارة؛ سلبياتها وسفاسفها ونواتج تفاعلاتها العرضية..

آخرون، من أولئك المتشاكسين، سيمثلون الشهوات والرغبات فحسب، أهواءك وغرائزك الإنسانية دونما أدلجة أو تصعيد فكري للموقف..

وكل واحد من هؤلاء، يكون، أحياناً على الأقل، وغالباً في كثير من الأحيان، "أكبر" من أي شيء آخر؛ بمعنى أنهم ينتصرون وأنك تضعف أمامهم، وتنقاد إليهم.. يكونون هم "الأكبر" على أرض واقعك.. بينما يقول شعارك شيئاً آخر تماماً..

* * *

في ابتداء الصلاة، وبين كل مفصل من مفاصلها، يتكرر ذلك الشعار ربما لتستعيده كل مرة، ربما ليذكرك أن مقياسك للأمور، في كل مفصل من مفاصل حياتك، يجب أن يكون هناك، عند الله..

(الله أكبر) لا تلغي حقائق الحياة وشروط الواقع وإشكالاته وإرهاصاته، لكنها فقط لا تجعل كل هذا "أكبر" منها..

إنما تكون هي الأكبر..

"يداك خلقتا لذلك"..

وترفع يديك في أثناء ذلك..

ليس الأمر "حركة" دونما معنى، لا شيء في الصلاة التي هي الحد الفاصل، بلا معنى، لا شيء متروك للمصادفة في هذا العالم المليء بالمعاني، المبني على السنن والقوانين والتداخلات بينها، كذلك في الصلاة: لا شيء بلا معنى، لا شيء بلا مغزى ولا حكمة عميقة يمنحها الفهم والوعي عمقها وفاعليتها..

مع "الله أكبر" ترفع يديك..

فالفكرة العميقة التي تسكن الرؤوس يجب أن ترتبط بالأيدي؛ بالعمل، بالجهد العضلي الذي ينقل تلك الفكرة إلى الواقع، من دون يديك، ستكون "الله أكبر" مجرد شعار، مجرد نظرية أخرى، مجرد كتاب على الرف، قد يكون ثميناً، بل هو بالتأكيد ثمين، لكنه لن يسمن ولن يغني من جوع ما لم ينزل من الرف إلى الواقع، حيث يواجه

امتحانه ومصداقيته، وحيث يمتلك هناك كل إمكانات الخصب والعطاء..

لكن لا، أنت لن تنزل الفكر إلى الواقع، بل سترفع الواقع ليكون بمستوى الفكر، أنت ترفع يديك إلى مستوى رأسك؛ كأنما تشير بذلك إلى حتمية أن ترفع العالم ليكون بمستوى فكرة "الله أكبر" التي تسكن رأسك.. كما لو أن دورك أصلاً هو أن تفعل ذلك بين الأوقات الخمسة، أن ترفع العالم.. أن تجعله مكاناً أفضل، مكاناً يتحقق فيه أن "الله أكبر"..

ترفع يديك، ستحتاج إليهما حتماً عند تطبيق أي شعار، ستحتاج إليهما عندما تبني ما يجب أن تبنيه، وعندما تهدم ما يجب أن يهدم، عندما تدافع عما يجب أن تدافع عنه.. وعندما تمد يدك لتأخذ بالأيدي الأخرى.. وعندما تتواصل معها، وتلتحم معها، لتشترك في جعل العالم مكاناً أفضل..

ترفع يديك، وتقول "الله أكبر"..

* * *

الاستفتاح، أن تفتح مغاليق الكون...!

قد لا يكون دعاء الاستفتاح ركناً كما بقية أركان الصلاة، ولا أود الدخول في مصطلحات الاستحباب وسواها، لكن الاستفتاح شيء فعله عليه أفضل الصلاة والسلام، ولا بد أن يكون فعله لسبب..

بعد كل ما تقدم؛ من الأذان، إلى الوضوء، إلى النيّة، يأتي "دعاء الاستفتاح" ليكون بمنزلة نقطة الشروع الأولى، كل ما سبق كان ممهدات، النية كانت بمنزلة العزم اللازم للشروع بالمهمة، لكن دعاء الاستفتاح يأتي ليكون بمنزلة إشارة على البدء بالأمر..

* * *

الاستفتاح..

قلما نتأمل في اللفظ.. هو الآخر تراكم عليه الصدأ والكلس. لا، ليس عليه؛ بل على أبصارنا وعلى عقولنا وعلى كل أساليب وآليات فهمنا ورؤيتنا للأمور..

الاستفتاح، ما تفتتح به الصلاة.. فلننتبه هنا إلى أنها ليست ما تبتدئ به الصلاة، لم يأتِ اللفظ ليتحدث عن ابتداء الصلاة، بل عن الاستفتاح.. الذي هو طلب الفتح.. كأنما المعنى هنا، أن الصلاة هي الخطوة الأولى في فتح هذا العالم، هذا الكون، كأنما المعنى هنا، أن الصلاة

تساعدك على فتح مغاليق هذا العالم، وأسراره، وأبوابه المغلقة بمزاليج ضخمة..

كأنما المعنى هنا، أن "الفتح" إنما يبدأ هنا، من الصلاة، وكان الفتح يومها هو تغيير العالم، تغيير الناس، تغيير أسس البناء وإقامة حضارة على أسس جديدة..

عندما نتذكر أن رجلاً بقامة ابن الخطاب كان يجهز الجيوش في صلاته، نفهم أن ذلك كان من هذا..

من أن الفتح، يبدأ من الصلاة..

وكان الاستفتاح، نقطة شروع في طلب الفتح..

في البدء بصلاة، هي دورة تدريبية على تغيير العالم..

* * *

«وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين. إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين» رواه مسلم.

التجربة الرائدة مدخلاً للفتح..

مرة أخرى يضعنا دعاء الاستفتاح، الذي هو طلب الفتح عبر الصلاة، في عمق التجربة الإبراهيمية، ويصلها أيضاً مع الامتداد المحمدي المشرف، ويصهر التجربتين - معاً - في دعاء واحد، ليجعل منهما معاً نقطة انطلاق شخصية لكل واحد منا..

الحديث، الذي رواه مسلم عن علي بن أبي طالب،

مركب كما هو واضح من سياقين قرآنيين مختلفين، ولكنهما معاً من سورة الأنعام..

السياق الأول إبراهيمي صرف، وهو يضعنا في تلك الليلة التي اكتشف فيها العقل الإنساني طريقه إلى الإله الحق، إلى الإله الواحد الذي لا شريك له..

إنه بالذات يضعنا في الجملة التي توج بها إبراهيم النتيجة التي توصل إليها، سواء كانت تلك الجملة موجهة إلى قومه، أم في حوار داخلي تتحدث عبره الإنسانية جمعاء، على لسان إبراهيم..

﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الأنعام: ٦/٧٩].

أما السياق الثاني فالمخاطب به هو الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام، وأمته من بعده، فالآية تبدأ بـ ﴿قُلْ﴾، وهذا يعني أنه عليه الصلاة والسلام هو المقصود ابتداءً..

﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأنعام: ٦/١٦٢-١٦٣].

لكن حتى هذا السياق، له جذر إبراهيمي شديد الوضوح في الآية التي سبقته بالضبط ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾﴾ [الأنعام: ٦/١٦١].

ما الذي جمع الآيتين معاً لتكونا دعاء الاستفتاح هذا؟..

إنه، على الأغلب، ارتباط التجربتين وتكاملهما

واستمراريتهما معاً، والجمع بينهما للدلالة على ذلك، وعلى الأخص للدلالة أن تكاملهما معاً على فترة آلاف السنين التي تفصل بينهما زمنياً، يدل أن إمكانية الاستمرار قائمة، وأن آلاف السنين التي تفصلك عن الأولى، البضعة عشر قرناً التي تفصلك عن الثانية، لا يجب أبداً أن تكون حاجزاً يمنعك من الاستمرار.. من المواصلة على الدرب نفسه..

كان هذا هو (جوهر) الجمع بين الآيتين، وفي التدقيق سنجد حتماً تفاصيل أخرى..

تحديد الاتجاه

وجهت وجهيَ..

تحمل هذه الجملة ذلك الإيحاء المزمن بأن حياتك هي رحلة مستمرة، ولو لم تغادر المكان الذي ولدت فيه قط، فإنك أيضاً في رحلة مستمرة، ما دام الزمن يعبرك، ما دامت كل لحظة منه تذهب ولن تعود مهما حصل، فأنت في رحلة؛ سواء أدركت ذلك أم لم تدرك، سواء اعترفت بذلك أم أنكرته.. لا فرق، ما دام الزمن يمضي..

الفرق هو أنك، عندما تدرك ذلك تستطيع أن تتحكم باتجاه الرحلة، تستطيع أن تتحكم في المحطة الأخيرة..

أما إذا لم تدرك، أو إذا رفضت أن تدرك، فإن الرحلة ستمضي بك بكل الأحوال، لكن باتجاه غير محدد بالنسبة إليك، وربما ستنتهي بك في هاوية لا تود حتى أن تتخيلها..

إذا لم تحدد توجهك فإنك، حتماً، تكون توجهت للهاوية..

كل ما هو أنت !

والوجه؟.. إنه هنا رمز مختصر لكل ما هو أنت، لكل ما هو مهم فيك، أنت ربما تكون بلا يد وبلا قدم، لكن (الوجه) فيك هو أنت باختصار، إنه يحتوي على كل ما (يشخص) منك من انفعالات ونتائج تفاعلات تجري تحت السطح..

وجهك يضم كل ما يشخص منك، إنه بالتعبير المعاصر، شخصيتك بأسرها، إنه يضم حواسك كلها، التي من دونها ستكون معزولاً عن العالم الخارجي والتفاعل معه، ومن ثم ستكون ممنوعاً من التفاعل والفاعلية، وعليه لن (تكون) أصلاً..

(وجهك) هو كل ما هو أنت.. كل ما هو مهم فيك، قد تغطي الأقنعة وجهك أحياناً، لكنها لن تصير وجهك أبداً، سيظل وجهك هناك، ربما تحت قناع مزيف، ربما تحت شمار اللياقة والمجاملة الاجتماعية، ربما تحت طبقات المساحيق والأصباغ - هناك وجهك - سيظل موجوداً، رمزاً لحقيقتك الداخلية.. رمزاً لكل ما هو آت حقاً، دونما إضافات أو أقنعة أو عمليات تجميل..

(وجهت وجهي) تعني أنك اتجهت بكل ما هو مهم فيك، بجوهرك، بشخصك نحوه هو..

إنها تعني أنك حزمت حقائبك، ولم تضع فيها سوى نفسك.. واتجهت إليه..

الفتح يتطلب تمايزك عن بقية الخلق

وصيغة الاستفتاح، المأخوذة من الآية الكريمة، تتخذ من الذي "فطر السموات والأرض" جهة للقصد والذهاب، وهو الخالق - عز وجل - الذي خلق السموات والأرض، كما خلقنا نحن أيضاً، لكن الآية الكريمة لا تحدد غير أنه خلق السموات والأرض، ولا تذكر أنه خلقنا، كما لو أن التركيز هنا يتم على (السموات والأرض) باعتبارها الموضوع أو الموضع الذي سيتم استخلافنا فيه وتبحرنا فيه، لذا فإن نوعاً من الاستقلالية سيمنح لنا، نحن، عن السموات والأرض، إننا جميعاً قد فطرنا الله عز وجل، ولكننا نحن، وحدنا، من مُنِحنا الحق في خلافته فيما خلقه..

"الميل" عن كل الخيارات "المائلة"

تختار الآية الكريمة، على لسان إبراهيم، وعلى لسان أفضل الخلق من بعده، وعلى ألسنتنا جميعاً لاحقاً، أن نعرف من وجّه وجهه باعتبار أنه المسلم الحنيف، أنه ليس المسلم فقط، بل "المسلم الحنيف"، والحنيف في اللغة تعني "المائل"، وهذا يعني، في هذا السياق، أن المسلم الحنيف، هو المسلم الذي (مال) وترك كل الخيارات الأخرى، والحضارات الأخرى، والإيديولوجيات الأخرى، والأديان الأخرى، لقد عرضت عليه، لكنه "مال" عنها..

وربما لهذا، ارتبطت الحنيفية بأبي الأنبياء إبراهيم، الذي "مال" عن كل الخيارات القائمة، وأبطلها الواحد تلو الآخر، وكانت استقامة طريقه تتمثل في ميله المستمر عن كل ما يمكن أن يشوه أصالة وعمق الحقيقة التي وجدها..

وربما لهذا، جاءت "وما أنا من المشركين" بعدها؛ ذلك أن الإشراك هنا، ليس بالضرورة الشرك التقليدي المتمثل في التعبد للأوثان والأصنام (وسواها مما يماثلها في المعنى ويخالفها في الأصل)، ولكنه أيضاً، وربما بشكل لا يقل خطورة، الإشراك بالرؤية، "الميل إلى" بدلاً من "الميل عن"..

أربعة، تختصر كل شيء..

بعد ذلك المقطع الإبراهيمي المحض، الذي تجسد واقعاً في التجربة المحمدية، يأتي الجزء المحمدي الصرف، الذي يفترض أن يستمر تجسده واقعاً في حياتنا..

﴿إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي﴾ [الأنعام: ٦/١٦٢]..

أربعة أشياء، يحددها النص الإلهي، الذي اختاره عليه أفضل الصلاة والسلام، ليكون جزءاً يفتتح به الصلاة..

الصلاة، النسك، المحيا والممات..

فلنلاحظ هنا أن الصلاة هي قبل كل شيء، العنصر الأول الذي اختير قبل كل العناصر الأخرى، المدخل لكل

ما سيلي، على أهميته، يعزز ذلك نظرتنا من الصلاة؛ هي بمنزلة دورة تدريبية لكل ما يجب أن يفعل في الحياة..

بعد الصلاة، تأتي النسك، وسيقزم من معناها لو فهمنا أنها "الذبيحة"، هي الذبيحة طبعاً، لكن ذلك جزءٌ منها، فالذبيحة هي الأضحية، هي ما تضحي به، وأنت لا تضحي فقط بكبش، بل تضحي بأشياء أخرى كثيرة، بل إن الذبيح الأول الذي كاد يكون ذبيحاً لم يكن كبشاً أو بقرة؛ بل كان ابن إبراهيم نفسه، إلى أن فدي بذبح عظيم..

النسك هو كل ما تضحي به، أحياناً يكون دمك تهرقه (أو تحرقه)، وأحياناً يكون أعصابك، وأحياناً يكون كل رصيدك: عمرك كله..

وأحياناً يكون جهدك كله: فكرك كله، كل ما تملك، ليس بالمعنى المادي، بل بمعنى أعمق، كل ما تملكه حقاً حتى أعضاؤك، حتى كريات دمك الحمراء والبيضاء؛ تضحي بها: ليس بمعنى "الذبح" والإهراق بالضرورة، ولكن بمعنى أن تكون كلها مجندة لقضية واحدة.. لله ربّ العالمين..

دمي، ودموعي، حتى ابتسامتي، ممكن أن تكون "أضحية" عندما تصير جزءاً من هذا الدرب، عندما تصير وسيلة لتعبيد الدرب نحو الهدف..كل ما أضحي به، في سبيل ذلك، هو "أضحية" وهو نسك.. وهو نسكي..

* * *

و "محياي" أيضاً..

إنها حياتي كلها. لا، الأمر أعمق من حياتي كلها.. ليس الحديث هنا عن الحياة، بل عن المحيا ..عمّا أحيا به، عما أحيا من أجله.. الأمر ليس عن محض حياة بيولوجية؛ بل عما هو وراء ذلك، عن الهدف من حياتي، الهدف الذي يجعلني أستيقظ صباحاً وأنهض من فراشي، الهدف الذي يجعل قلبي يدق، ولا ينبض فقط، الهدف الذي يجعل الدم يغلي في عروقي، ويروي في عروقي، ولا يجري فحسب، الهدف الذي يجعلني أود أن أعيش فعلاً - لا أن أعيش لأني وجدت نفسي "كذلك" وانتهى..

محياي، ما أحيا من أجله.. ما يجعلني أستمر، مع كل شيء.. أن يكون لله..

* * *

ولا ينتهي الأمر عند "محياي"..

بل هو هناك أيضاً عند النهاية.. عند إسدال الستارة على الفصل النهائي من حياتنا.. عند "مماتي"..

أستطيع أن أجعل من الموت ليس مجرد "نهاية"، أستطيع أن أجعله أكثر من مجرد حتمية لا بد أن نمر بها، أستطيع بمحياي - عبر أن يكون لحياتي معنى، أن يكون موتي توقفاً عن التنفس، ولكن ليس عن العطاء.. أن يستمر عملي وعطائي وأثري حتى بعد أن أذهب ..بطريقة ما، أن يستمر عملي، ربما عبر عمل الآخرين، ربما عبر تفاعله مع أعمالهم، ربما بأن يكون بذرة يرعونها هم..

المهم، يمكن - أحياناً على الأقل - أن يكون "الممات" ليس قاتماً كما نتصور، يمكن لنا أن نجعله حصاداً لموسم، واستعداداً لموسم آخر، لن نحضره، لكن بذورنا ستنوب عنا، وستكبر، تنضج، ربما لتصير ثماراً، أو حتى سماداً، لموسم لاحق.. إنه إحداثنا فرقاً عبر "محيانا"، أن نكون قد جعلنا من زيارتنا لهذا الكوكب "مجدية"؛ زيارة أحدثت فرقاً، زيارة جعلته مكاناً أفضل مقارنة به قبل أن نأتي إليه..

أن يكون هناك فرق، لا أن يكون وجودنا، وعدمه سواء.. لا أن تكون حياتنا وموتنا سواء..

﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الجاثية: ٤٥/٢١]..

* * *

بدأ الأمر بـ "صلاتي"..

وانتهى بـ "مماتي"..

وبينهما الأمر كله.. بينهما طريق مفروش بالأشواك والزجاج المطحون.. لكنه يجب أن ينتهي، ينتهي ببناء عالم أفضل.. فلنتذكر أن الأمر بدأ بالصلاة، وأن النص كله قد وظف في افتتاح الصلاة، كأنما لتذكرنا بوظيفة الصلاة، بل بوظيفتنا من خلال الصلاة..

وذلك كله، ليس كل شيء في الاستفتاح..

فهناك بعد، ربما ما هو أهم من ذلك كله..

* * *

هناك، "وأنا أول المسلمين"..

خاتمة: أن تكون الأول..!

من الناحية العملية، الآية تتحدث على لسانه عليه أفضل الصلاة والسلام، ما دامت تبتدئ بـ "قل"..

وهذا لن يلغي طبعاً أننا جميعاً مشمولون بالأمر الإلهي المباشر لنبيه..

من ناحية أخرى، نحن نعرف أن الإسلام، تاريخياً، أقدم من شخصه الكريم عليه الصلاة والسلام.. بل إننا نعرف ذلك من القرآن الكريم ..

﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ [البقرة: ٢/١٣٠-١٣٢].

هنا، يكون إبراهيم مسلماً، وقد وصى أولاده، وأولادهم ألا يموتوا إلا وهم مسلمون، أي أن يتوجوا حياتهم بأكبر حقيقة يمكن أن يخضع لها إنسان..

إذن إبراهيم، كان مسلماً، وكذا أولاده، وسلسلة أولادهم.. إلا من ظلم منهم، وخرج عن هذه الحقيقة..

كيف إذن "وأنا أول المسلمين" تنسجم مع هذا وهي موجهة له عليه أفضل الصلاة والسلام؟..

وكيف تنسجم - بعد ذلك، والأولى من ذلك - مع

حقيقة أننا سنقف، عند نقطة شروعنا في الصلاة لنقولها، ليقولها كل منا، "وأنا أول المسلمين"..

* * *

"عدم الانسجام" الظاهري هذا، هو بالذات أهم ما في الأمر..

إنه بالذات قوة الموضوع.. وحيويته.. وهو ما يستحق أن نتوقف عنده..

فأول المسلمين، ومعنى "الأول" في كل شيء لا علاقة له، في عمقه، بالترتيب الزمني الذي سيجعل منه - عليه أفضل الصلاة والسلام - لاحقاً لإبراهيم، بل ولأتباع إبراهيم..

"الأول" هنا، هو تلك الريادة التي تتجاوز القوالب المحددة، وتحطم قوالب التراتب وأسرها إلى مفهوم نسبي واسع، يجعل بإمكان أي شخص، أن يضع هذا نصب عينه، ليكون "الأول"، أول المسلمين..

دوماً هناك "أول" ما

وكان إبراهيم هو أول من أسلم.. حسبما نعلم، ولكن خاتم الأنبياء - وآخرهم - وصاحب الرسالة الخالدة، هو أيضاً أول المسلمين..

فالمفهوم هنا لا يعامل الأنبياء بالمطلق، ولا يعتبر التاريخ والواقع والزمن كتلة واحدة تتراكم باستمرار، بحيث أن "الأول" في أول زمن، هو الأول دائماً..

لا، سيكون ذلك انتفاءً للعدل الذي هو من صفاته عز وجل.. فما ذنب من جاء آخر الزمان، أن يحرم من أن يكون "الأول"..

كل مرحلة، بظروفها وشروطها وإرهاصاتها وإفرازاتها وتفاعلاتها ونتائجها، لها "أولها".. لها مسلم ما، سيؤمن بأن له دوراً ما، في هذه المرحلة، وتجعله "أول المسلمين" فيها.. ثم تأتي مرحلة أخرى، بظروف مختلفة، تتطلب "أولاً" "آخر"، يتصدى للتفاعل، ويتفاعل معه.. وينتج "أول مسلمين" آخر..

بل إن مرحلة ما، لها ظروفها وتفصيلاتها، قد تنتج أكثر من "أول"، أكثر من "رائد" في مختلف المجالات..

وقد يكون هناك، مرحلة ما، يفشل المسلمون فيها، في فهم دورهم، وفي فهم إمكاناتهم، وحقيقة ما كلفوا به، فيكونون أرضاً بوراً: لا تقدم ثمراً ولا عطاءً..

ولقد أمرت أن تكون من "الأوائل"!

أن تكون "أول المسلمين"، ليس خياراً نستطيع أن نتخلى عنه، إنه ليس ترفاً، ليس شيئاً إضافياً تزين به صدرك إلى جانب بقية النياشين والأوسمة الافتراضية..

إنه ليس أمراً تكافأ عنه إذا أديته، ولا تعاقب عليه إذا تركته، كما تعودنا أن نفهم كل شيء..

لقد أمرنا بذلك!.. أمرنا، جميعاً، كل واحد منا، أن يكون "أول المسلمين"..

لا أقصد.. "وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين" التي توحي أن "الأمر" هنا كان عن "صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي" أكثر مما توحي بأنها عن أن تكون أول المسلمين..

ولكن، تكتمل الصورة، وتتوضح أكثر، مع آية أخرى، عن "أول المسلمين" أيضاً.. آية نزلت على لسان الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام، ولكنها يمكن أن تكون واقعاً نتقمصه نحن أيضاً، نحن الذين ندعي أننا مؤمنون به..

سورة الزمر، التي تحدثت عن الإخلاص، بالذات عن متلازمة (العبادة - الإخلاص - الدين) وعن ذلك الرجل الذي هو سلم لرجل، بالضد من الرجل الذي فيه رجال متشاكسون..

الرجل الذي انتهى بأن صار "زمرة" ورث الأرض..

على أهمية تلك "المتلازمة" التي جسدها الرجل، إلا أن هناك تفصيلاً إضافياً، سيفسر الحلقة المفقودة عن كيفية انتقاله إلى أن يرث الأرض..

تفصيل يهمنا جداً، وله صلة بكل ما نحن فيه، وبكل ما يجب أن نكونه..

* * *

﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾﴾ [الزمر: ٣٩/١٢].

إنها بين ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴿١١﴾﴾ [الزمر: ٣٩/١١]، وبين ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾﴾ [الزمر: ٣٩/١٣].

هل يمكن أن نهرب مما قبلها ومما بعدها؟.. حتى يبرر

هروبنا من هذا الأمر: الأمر بأن يكون كل منا أول المسلمين؟..

لقد جاء هذا الأمر ضمن سياق ملزم للجميع (الإخلاص، خوف العذاب في حالة العصيان)..

ولا يمكن أن نهرب من الأمر - الذي نزل ليتحدث على لسان أشرف الخلق، إنما نحن ملزمون به أيضاً..

لأكون أول المسلمين..

* * *

يمكن أن تكون..

أول مسلم يطأ سطح القمر، أو أول مسلم يطأ عمق الإنسان، ويضع شارته هناك..

أو يمكن أن تكون أول مسلم يفتح واحداً من مغاليق الكون، أو سراً من أسرار الكيمياء، أو الفيزياء، لم يكتشفه أحد من قبلك..

يمكن أن تكون أول مسلم يسبر أغوار كون جديد، لم يسبره أحد قبلك، أو أن تكون أول مسلم يحلق في فضاء جديد، أو يفتح أفقاً جديداً..

يمكن أن تكون أول مسلم يكتشف عالماً جديداً عبر القرآن، أو يقرأ ما لم يقرأه أحد فيه من قبل..

يمكن أن تكون أول مسلم يضع خطة للوصول إلى ذلك العالم الآخر، العالم الذي يبنيه أولئك المسلمون، كل منهم يؤمن بأنه، على الأقل، يمكن أن يكون أول مسلم..

تبدأ صلاتك عبر الايمان بنفسك

اختيار صيغة الدعاء هذه، في افتتاح الصلاة تحديداً، له معان عديدة، إنه يعني أنك لكي تقيم الصلاة حقاً، وأعني هنا "إقامتها" فعلاً لا تأديتها فحسب، عليك أن تكون مؤمناً بإمكانياتك، مؤمناً بنفسك، أول المسلمين..

* * *

الدخول إلى إقامة الصلاة، عبر إيمانك بنفسك، يشبه "علاجاً نفسياً" أو دورة إعادة تأهيل، ترمم بها ذاتك وتعيد صياغتها لتكون مؤهلة للقيام بدورها الذي خلقت من أجله..

أن تؤمن بنفسك - بكونك "أول المسلمين" - يشبه أن تقف أمام المرآة وتكرر أنك الأفضل ألف مرة حتى تقتنع بذلك، لكي ترفع من مستوى تقييمك لذاتك، كما ينصح اللاعبون قبل مباراة ما، أو المقبلون على امتحان ما، تلعب ثقتهم في أنفسهم دوراً مهماً في اجتيازه..

بفارق أن هذا التكرار فيه نوع من الخداع قد يرفضه العقل الواعي، أما أن يكون صيغة دعاء، في افتتاح الصلاة.. فالأمر يدخل في الوعي نفسه، وفي اللا وعي.. ويعمل على رفع مستوى تقديرك لذاتك، ومن ثم من سقف إمكاناتك، وقدراتك.. فهو تحصيل حاصل نهائي: من أدائك..

* * *

بل إن صيغ دعاء الاستفتاح الأخرى، التي صحَّت عنه عليه أفضل الصلاة والسلام تبدو كما لو أنها تتآزر لترسيخ فكرة "أول المسلمين" هذه..

"اللهم باعد بيني وبين خطاياي كما باعدت بين المشرق والمغرب" (البخاري). فأول المسلمين قد يكون، كأي إنسان، له خطايا، إنه ليس ملاكاً، بل هو إنسان وله إرادته التي يمكن أن تخطئ وتصيب، لكن ذلك لن يمنعه أن يكون "أول المسلمين"؛ بل هو يطلب أن يباعد بينه وبين خطاياه.. ليكون أداؤه أفضل..

ليكون أولى بأن يكون "أول المسلمين"..

ويتفاعل مفهوم "أول المسلمين" الذي وظفه استفتاح الصلاة، مع وظيفة الصلاة نفسها، كما نفهمها وكما مرت سابقاً..

إنها الصلاة التي تجعلك مؤهلاً لتغيير العالم - لإعادة بنائه على أسس أكثر عدلاً وتوازناً، إنها الصلاة التي تدربك على أن تقوم بما خلقت من أجله ..أن تكون خليفة الله على الأرض، أن تكون "الأول"..

أول المسلمين..

* * *

مرة بعد أخرى، افتتاح بعد آخر، صلاة بعد أخرى، يتسرب إليك ذلك الإيمان بذاتك، بكونك مؤهلاً لأن تفعل كثيراً، لأن تؤدي ما هو مطلوب حقاً منك..

مرة بعد أخرى، تعيد الصلاة ترتيب أوراقك، تعيد فهمك لنفسك.. تعيد تكوينك..

وقبل ذلك كله: تجعل إيمانك بنفسك، ضرورياً جداً، لكي تؤمن بالله..

* * *

بين "أول المسلمين" و "وأنا من المسلمين"

ولأسباب مختلفة، وبحسن نية، تم إجراء تعديل بدا لمن أجراه أنه طفيف ومن ضروريات التأدب معه عليه الصلاة والسلام.. حيث تم تغيير "وأنا أول المسلمين" إلى "وأنا من المسلمين"، على أساس أن مكانة "أول المسلمين" يجب أن تظل محفوظة له عليه الصلاة والسلام..

ومكانة الرسول، ومقامه العالي محفوظان حتماً، لكن "تغيير" ما كان يعلمنا إياه، لا يندرج ضمن حفظ المقام، بل لعله يشكل حاجزاً بيننا وبين ما كان يريدنا أن نكون..

ولقد كان يريدنا أن نكون مؤهلين لأن نكون "الأوائل".. رواداً للحضارة، بنّائين للعالم.. معيدين لبنائه وتشكيله.. وفرق كبير، بين أن تؤمن بقابليتك على أن تكون "أول المسلمين" وبين أن تؤمن بأنك "من المسلمين" فقط..

الهبوط في تقدير قدراتك، سيتبعه هبوط في طموحك، وفي أدائك..

انظر الآن حولك، لا يمكن أن يفسر إحباط الواقع،

بسبب هذا التعديل حسن النية، لكن جملة أسباب وتراكمات، أدت إلى أن يكون تقديرنا لذاتنا متدنٍّ جداً، فنحن لا نكاد نطمح أن نكون "من المسلمين"..

ونسينا تماماً "أول المسلمين"..!

* * *

لكن حادثاً عرضياً، مثل هذا التعديل، يجب ألا يكون عقبة أمامنا.. فالنص القرآني، والدعاء المستوحى منه، لا يزال ينادينا، لا يزال يحدثنا، يأمرنا، ويحثنا، على أن نكون "أول المسلمين"..

لا يزال النص القرآني يملك تلك القوة، التي جعلت "الجيل الأول" يؤمن بذاته، وأن يكون إيمانه بذاته جزءاً من إيمانه بالله عز وجل الذي خلقه.. وهو الجيل "الأول" الذي آمن أنه بإمكانه أن يكون "الأول" لا على صعيد الترتيب الزمني، بل "الأول" بالمعنى الأعمق للريادة والإبداع والبناء، وكان ذلك كله جزءاً من محركه الداخلي، الذي جعله يحقق أعظم قفزة حضارية، في أقصر فترة زمنية.

* * *

محرك تلك القفزة لا يزال موجوداً.. كل ما في الأمر أننا افترضنا أن المحرك يجب ألا يستعمل حتى لا يعطل، فكان أن علاه وعلانا الصدأ..

لا يزال هناك جناحان جاهزان لكل منا.. يمكن لنا أن نستخدمهما لو أردنا، أن نحلق بهما، لكن ليس لكي ننفصل عن الواقع، ليس لكي نكون أقرب إلى الغيوم..

ولكن كي نرفع الواقع..

كي نحلق مع الواقع، بالواقع..

جناحان، ومحرك، عند افتتاح الصلاة، من أجل بناء الملكوت الحقيقي..

ملكوت الواقع..

دمشق ١٥ شوال ١٤٢٨

١٣-١٠-٢٠٠٧



مستخلص

سلسلة كيمياء الصلاة بحلقاتها الخمس تركز على الصلاة بصفتها عملية نعيد تشكيل أنفسنا من خلالها. وهي العملية اللازمة والضرورة التي تساعد الإنسان على أداء ما خُلق من أجله: إعمار الأرض.

الصلاة في هذه الحلقات هي تجسيد شعائري وعملي لكل معاني النهضة والنهوض التي هي جوهر الإسلام. ومن خلال تمثل هذه المعاني – عبر الصلاة – فإن فكر النهضة سيهبط من رفوف الكتب وأفكار المثقفين ليلتحم بأرض الواقع. إنها الحلقة المفقودة بين ما نحن عليه فعلاً، وما يجب أن نكونه.

في (ملكوت الواقع) – الجزء الثاني من هذه السلسلة، يتألف من مقدمة وستة فصول وخاتمة، تتناول موضوعات ترتبط بإقامة الصلاة، وتمهد لها قبل البدء بها، مثل النداء للصلاة، والوضوء، وفلسفة الأوقات الخمسة، ومعنى الاتجاه إلى القبلة، وأهمية ركن النية، ومن ثم التكبير ودعاء الاستفتاح، وعلاقة كل ذلك بمفهوم النهضة – العميق والواسع – في الإسلام.

Abstract

This series, *"Chemistry of Prayers"*, with its five episodes, highlights the prayer which is practical for reformulating our own selves. It is the essential practice and the necessity which helps the human do the things for which he/she was created; i.e., building the Earth.

In these episodes prayer is a ritual and workable incorporation of the meaning of revival and resurgence which constitute the essence of Islam. If we assimilate these meanings – through prayer – the thought of the revival will surely get off the racks of the books and the ideas of the intellectuals and unite with reality which represents the lost circle between the life we really live and what we have to be.

Part Two of this series, *"Realm of Reality"*, consists of an introduction, six chapters and a conclusion. It handles topics related to the call to prayer uttered shortly before it [*al-iqamah*], and those that precede it and prepare the soul for it, such as the call to prayer [*al-adhan*], the ablution [*al-wudu'*], the philosophy of the five times of prayer, the meaning of turning towards the *qiblah*, the significance of the pillar of the intention [*al-niyya*], glorifying Allah [i.e., saying '*allahu akbar*'], the initiation invocation and the relation of each with the concept of the revival, which is deep and vast in Islam.

كيمياء الصلاة ٢
ملكوت الواقع

Realm of Reality
Malakūt al-Wāqi
Aḥmad Khayrī al-'Umarī

(كيمياء الصلاة) سلسلة تتحدث عن الصلاة التي يجب أن تكون، عن الصلاة التي تقويك، وتسندك، وتكون معولك ودرعك وبوصلتك ورادارك.. عن الصلاة بوصفها (المعادلة) التي تعيد النظام لعالمك.. إنها تتحدث عن الصلاة بوصفها منظومة متكاملة، للفرد وللمجتمع، من أجل بناء فرد ومجتمع أفضل. بعبارة أخرى: إنها الصلاة من أجل النهوض..

الصلاة باعتبارها وسيلة للنهوض ولإعادة بناء العالم، تشكل منظومة متكاملة، تبدأ حتى قبل أن تقام الصلاة عملياً.

هذه الحلقة (ملكوت الواقع) تبحث في محفزات للنهوض تسبق الصلاة لكنها تكون جزءاً من هذه المنظومة. فالنداء للصلاة سيكون نداءً للحياة، والمواقيت الخمسة ستجعل المصلي يتوحد مع الكون الملتزم هو الآخر بنظام مواقيت خاص، وسيكون الوضوء أكثر بكثير من مجرد غسيل، بل سيكون التحاماً بالماء الذي هو أصل كل حياة، وسيكون اتجاهنا في الصلاة إلى القبلة، تحديداً، لموقف حضاري، تأكيداً على بناء حضارة مستقلة، لها ثوابتها الخاصة وقيمها ومنطلقاتها. كل ما هو قبل الصلاة، سيكون جزءاً من منظومة النهوض، إلى أن نصل إلى التكبير، ودعاء الاستفتاح، الذي سيكون هنا مقدمة للفتح: ***فتح ملكوت الواقع.***

ISBN -9953-511-67-5
9 789953 511672

تصميم الغلاف: يمان بطيخة